

أبو تمام

أبو تمام

شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله

تأليف

عمر فروخ

الاولى ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٥ م

مطبعة الكشاف بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلمة الاولى

ابو تمام حبيب بن اوس الطائي ، كما يعرفه النقاد ، شاعر يمثل عصراً بجميع نواحيه، ويبلغ بقصائده اقصى مصادر المعاني وابعد حدود المجاز واغرب وجوه الاستعارة ، باوغاً مبنيا — في الاعم الاغلب — على غريب العربية ونوادر النحو ، ومعقوداً بالاشارات التاريخية ومحبوكاً بالحكم : قريبها وبعيدها . هذه هي ميزات ابي تمام الخاصة ، اما ما سوى ذلك فاشياء يشترك فيها جميع الشعراء ولكنه يعلو بها فوقهم .

وليس المسلك الى ديوان ابي تمام سهلا ، ولا النظر فيه هيناً فانك تحتاج في تفهمه الى دورة عقلية خاصة لا تستقر على معنى قبل ان تستعرض جميع ما تستوعبه من اللغة والاجتماع والفلسفة والادب ثم لا يفي ذلك بما تريد فترجع ادراجك في الاستنباط والتخريج ؛ فاذا فعلت ذلك كنت امام شعر حبيب بن اوس كما قال ابن الرومي في وحيد المغنية :

فهي العيش ما يزال متى اسـتعرض يملي غرائبا ويزيد

لقد قسمت هذه الصفحات التالية اقساماً ثلاثة تتبعت في اولها خطوات

صاحب الترجمة عهداً عهداً وعقدت من حوادث حياته فصلا متعانقاً قدر الاستطاعة وجهد الطاقة . واما الفصل الثاني فرميت منه الى غرضين اولهما ان اجمع اكثر ما يجب ان يعرفه الدارس لديوان ابي تمام فيستغني عن مراجعة المصادر ليوفر وقته على التفهم ؛ وثاني الغرضين ان ارتب هذه المواد المجموعة ترتيباً معقولا متسقا . واما الفصل الثالث فدارسة فنون الشاعر دراسة مبنية على الديوان في ضوء ما قاله النقدة من اساطين العلم والادب ، مع نماذج مبينة لوجوه الاغراض .

وانا اذا فعلت ذلك فلن استطيع ان أعِد من يجد لي خطأ بليرة ذهبية كما فعل الشيخ محيي الدين الخياط — رحمة الله عليه — بعد ان بسط من اسباب تواضعه ايضاً ولولا هذا التواضع لجعل للظافر بالخطأ اكثر من ذلك (مقدمة ديوان ابي تمام ص : د)، اما انا فاعتقد انني لو بدأت كتابة الدراسة من جديد لاستطعت ان استدرك اشياء كثيرة منها ما سأنبه عليه من الاخطاء المطبعية — كما ندعوها[1] — ومنها ما سأتركه للمستقبل لانها لن تعترض سبيل القاريء ولا تكاد تصرف معنى عن وجهه . وقد قيدت ما كتبته بمصادره ومراجعه فمن احب التوسع هان عليه الوصول الى الاصول، ومن احب التثبت فما علمنا العصمة الا لله وحده .

ع. ف.

(١) راجع الاخطاء المطبعية ص ١٠٠



سحى فى حلوق الحادب مسرق   به عرمه فى الرهب معرب
كأن له دسا على كل مسرق   من الارض او سوفا الى كل معرب

ص ٢٥

لسان العرب

مصادر الدراسة

فيما يلي قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدتها في اعداد هذه الدراسة . على ان هنالك غيرها مبثوثة في ثنايا الحواشي ؛ وهنالك ايضاً غيرها اكثر عدداً لم اجد حاجة الى اثباتها لقلة الجدوى في ذلك .

ديوان خ — ديوان ابي تمام ، شرح الشيخ محي الدين الخياط — بيروت (١٣٢٣ ه)

ديوان ، الاسود — مثله ، شرح الدكتور ملحم ابراهيم الاسود ، الجزء الاول فقط (بيروت ١٩٢٨ /١٣٤٧)

الحماسة ، لابي تمام (مصر : مطبعة محمد علي صبيح الكتبي) الطبعة الثانية

الطبري = تاريخ الرسل والملوك (ليدن : مطبعة بريل ؛ ومصر : المطبعة الحسينية) .

ابن الاثير = تاريخ الكامل (مصر : المطبعة الازهرية ١٣٠١ ه) الطبعة الاولى .

الفخري = الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن الطقطقي (مصر : المطبعة الرحمانية) .

ابن عساكر : تهذيب التاريخ الكبير (الشام)

ياقوت = معجم البلدان لياقوت الحموي (مصر ١٣٢٤/١٩٠٦)

الفهرست = كتاب الفهرست لمحمد بن اسحق النديم (مصر : المطبعة الرحمانية ١٣٤٨) .

الاغاني ، او غ = كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني (مصر ج ١—٥ دار الكتب ؛ ٦ — ٢١ مطبعة التقدم)

نزهة الالباء = نزهة الالبـاء في طبقات الادباء لعبد الرحمن بن محمد الانباري (مصر ١٢٩٤)

وفيات الاعيان لابن خلكان (مصر)

معجم الادباء = ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ، او طبقات الادباء (مصر : مطبعة هندية ، الطبعة الاولى)

الموازنة = الموازنة بين ابي تمـام والبحتري لابي القاسم الآمدي (الاستانة ١٢٨٧)

العمدة = العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لابي علي الحسن بن رشيق القيرواني (مصر : مطبعة السعادة ١٣٢٥/١٩٠٧)

FINLAY, George — History of the Byzantine Empire (cf. note).

BROCKELMANN, Dr Carl — Geschichte der arabischen Litteratur, Leipzig 1901.

دائرة المعارف الاسلامية ، تحت : ابو تمام ، الحماسة .

NICHOLSON, R. A. — Literary History of the Arabs London 1930.

زيدان ، جرجي — تاريخ آداب اللغة العربية (مصر ١٩١٢)

المقدسي ، انيس — امراء الشعر العربي في العصر العباسي (بيروت ١٩٣٢)

مجلة الكلية ، المجلد الخامس (بيروت ١٩١٤) — سلسلة مقالات للاستاذ جبر ضومط .

شيخو ، الاب لويس — شعراء النصرانية بعد الاسلام (بيروت ١٩٢٤)

الفصل الاول

ترجمة ابي تمام

جاسم — على يمين الطريق الاعظم الذي كان يمتد بين دمشق وطبرية قرية صغيرة تدعى جاسم. هذه القرية تبعد عن دمشق ثمانية فراسخ كما ذكر ياقوت[١] ، وهي من كور حوران في كورة الجولان او الجيدور ، والجولان والجيدور كورة واحدة. وفصّل المقدّسي فقال[٢] : « وتأخذ من دمشق الى الكُسوة بريدين ، ثم الى جاسم مرحلة ، ثم الى فيق مثلها ، ثم الى طبرية بريداً[٣] » .

ولعل جاسم هذه هي التي وقعها كريسو على خارطته[٤] بين ٣٢ْ و٣٨ من خطوط الطول ، و ٣٦ْ و ٣٧َ من خطوط العرض . على ان هذه تبعد عن دمشق مسافة تزيد كثيراً عما قدر ياقوت[٥] . ولا ندري ما قصد

(١) معجم البلدان ٣ : ٣٨ (٢) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ليدن ١٨٧٧) ص ١٩٠ (٣) هذه مسافات تعرف بالتقريب ، راجع تاج العروس ٢ : ٢٧٢، ٢٩٨ (٤) الجمهورية اللبنانية ، سورية ، فلسطين « المطبعة الاميركية » (٥) اما في المقاييس الحديثة فانها تقع على مسافة خمسة وعشرين كيلو مترا من اذرع شمالا في غرب ؛ او على بعد نحو ٣٨ كيلو مترا الى شمالي درعا .

الاصفهاني بقوله [١] عن ابي تمام « ان مولده ومنشأه بناحية منبج بقرية يقال لها جاسم » . ألعل هناك غير منبج التي تقع الى الشمال الشرقي من حلب ؛ ام أن هناك غير جاسم التي تقع قرب دمشق ؟

في جاسم — كان رأس الاسرة التي خرج منها ابو تمام رجلا نصرانيا اسمه تدوس العطار كما روى ابن خلكان[٢]. ولهذا الاسم قراءات مختلفة : تدوس وتدرس وندوس ، ولعل أقربها الى الصواب ما قرأه مرغليوث[٣] فهي عنده ثدوس التي ربما كانت مجزوءة من ثيودوسيوس اليونانية [٤] . من ذلك نستطيع أن نصل الى رأي لا يحتاج الى كثير من التحفظ في ابدائـه : هو ان تدوس[٥] هذا كان من الجالية الرومية التي كانت في سورية قبل الفتح الاسلامي ؛ او أنه جاء الى هذه البلاد بعد ذلك .

ولد حبيب بن ثدوس العطار في الثلث الاخير من القرن الثاني للهجرة . وقد روى الانباري عن تمام ابن الشاعر [٦] ان ذلك كان عام ١٨٨هـ ؛ وعدد ابن خلكان [٧] غير عام ١٨٨ اعوام ١٧٢ ، ١٩٠ ، ١٩٢ هـ .

اما ابن عساكر فاعتمد [٨] عام ١٨٨ وشك في عام ١٩٠ ؛ ولعل الاول من هذين التاريخين احسن انتظاماً في ترجمة ابي تمام، وأكثر اتساقاً مع حوادث حياته المقبلة .

---

(١) الاغـاني ١٥ : ٩٦ (٢) وفيات ١ : ١٥٠ (٣) دائرة المعارف الاسلامية تحت : ابو تمام (٤) نقول اليوم « قسطة » مجزوءة من قسطنطين، وثيو مجزوءة من ثيودور (٥) في تاج العروس : سدوس : بضم السين وفتحهـا ، رجل من طيء (٦) نزهـة الالباء ص ٢١٤ = ٣٢٥ (٧) وفيات ١ : ١٥٢ (٨) تهذيب التاريخ الكبير ٤ : ١٨ ، ٢٦

في دمشق — ثم بدا لثدوس العطار — اسباب من الاسباب — ان يترك جاسم وينتقل الى دمشق . فلما نزلها فتح لنفسه حانوت خمر — صنعة كانت محصورة في غير المسلمين وغير العرب [١] — وارسل ابنه حبيبا يشتغل عند حائك (وفي رواية قزاز — بائع قز وهو الحرير) .

وقد نشأ حبيب وشب في دمشق ، ورأى فيها قوماً يحنون عليه حتى بلغ سناً تقرب من سن الرشد . في ذلك الحين بدأت مواهبه بالظهور واقتنع بالاسلام فاعتنقه ، واصبح شديد الحماسة في الدفاع عنه ، واشد حماسة في مهاجمة اعدائه . ويكفي ان تلقي نظرة واحدة على قصائده في مدح الخلفاء لتعلم ان اسلامه كان وطيداً متيناً ، وانه لم يعتنق الاسلام حباً في اجتذاب الدنيا اليه [٢] . ويلوح لنا أنه اسلم وحده وبقي اهله على دينهم كما يلاحظ في قوله :

نأيت ، فلا مالا حويت ، ولم أقم   فأمتع ، اذ فجعت بالمال والاهل .
بخلت على عرضي بما فيه صونه   رجاء اجتناء الجود من شجر البخل .
عصيت شبا حزمي لطاعة جيرة   دعتني الى ان افتح القفل بالقفل (؟) [٣]

ويلفت من نظرنا ورود كتاب عليه بنعي أحد اهله ، وكان ذلك الكتاب موشحاً بالسواد [٤] . ثم ان ابا تمام غير اسم والده فجعله « اوساً » ، فما يدرينا اذا كان قد غير اسمه هو ايضاً ؟

في حمص للمرة الاولى — وكان لا بد له من التخرج في فنه ، فذهب

---

(١) ابو نواس : الدراسة ص٣٧   (٢) امراء الشعر ١٧٥ وحاشية ٦ من ص١٢

(٣) المعنى الملموح انه ذهب الى مصر طلبا لامر فكانت غنيمته في ايابه (؟) .

(٤) ديوان خ ص١٦٣ ، س ١ : ٢٩٣

الى حمص حيث بدأ حياته الشعرية في مدح اسرة عتبة بن ابي عبد الكريم الطائي ، وكان عبد الكريم شاعراً [١] فقضى ايام تخرجه في جانبه . وكان في حمص ايضاً شاعر أبعد شهرة من عبد الكريم الطائي هو عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن الحمصي ، فأخذ عنه وتأثر به الى حد بعيد .

احتذى ابو تمام شعر ديك الجن فاكتسب منه الصناعة اللفظية وسار بها شوطاً بعيداً حتى نسبت اليه ، وحتى قال النقاد : ان ديك الجن يتبع مذهب ابي تمام ،بدلا من قولهم : ان ابا تمام يقتفي مذهب ديك الجن [٢] .

ولعل ابا تمام اكتسب من ديك الجن شيئاً آخر هو مذهبه العلوي ، لان عبد السلام كان يتشيع تشيعاً حسناً ، ولكنه لم يتأثر بشعوبيته [٣] ؛ وأخذ عنه أيضاً الاجادة في الرثاء [٤] .

وفي حمص ايضاً انتسب ابو تمام — في الاغلب — الى طيء بالولاء ، فقيل « ابو تمام الطائي » ، فان غير العربي اذا أسلم — كما هو معروف في التاريخ — انتسب بالولاء الى قبيلة عربية ، او بيت عربي ، او اسرة عربية [٥] . ولقد كان ابو تمام مقيماً في حمص مكرماً لدى الطائيين بني عبد الكريم يأخذ من جودهم ومن ادبهم فكان من أجل ذلك خليقاً ان يُنيط بهم ولاءه ،ويؤثرهم على من سواهم . امـا رأي الاب شيخو [٦] في رد نسبه الى طيء فلا تقوم عليه حجة واحدة . اننا نقول ابو تمام الطائي كما نقول مسلم بن الوليدالانصاري

---

(١) بروكلمن ص٨٧ (٢) اقرأ الاغاني ١٢ : ١٣٦

(٣) الاغاني ١٢ : ١٣٦ (٤) العمدة ٢ : ١١٩

(٥) ابو نواس ، الدراسة ص٦ (٦) شعراء النصرانية بعد الاسلام ص٢٥٦-٢٥٧

وابو نواس الحكمي وبشار بن برد العُقيلي[١] وكلهم غير عرب . اضف الى ذلك قول ابن خلكان[٢] : « وقد أُلفقت له نسبة الى طيء » . فابو تمام اذن كان طائياً بالولاء لا طائياً بالنسب . وجدير بالذكر ان يكون افتخاره بطيء انما هو بامه الطائية[٣] من جهة امها ايضاً[٤] . ثم ليس الاتيان بدليل على طائية امه باهون من الاتيان بدليل على طائيته هو .

٭ ٭ ٭

لم يقتصر وجود ابي تمام في حمص على التعلم والتخرج فقط ، بل ترك اصدقاء هنالك كان يحن اليهم ؛ فله في آخر مدحة في سليمان بن نصر[٥] :

فبحقي لما خصصت ابا الطيب مني بطيب من سلام .
وثنائي من قبل هذا ومن بعد ، وشكري غض لعبد السلام .

فاما عبد السلام فهو ديك الجن ، واما ابو الطيب فابن عم ديك الجن[٦] .

الرحيل الى مصر ٢٠٨ — ٢٠٩ — هجر ابو تمام حمص الى مصر « طلباً للمال » ، نرى ذلك ظاهراً بيناً في جميع قصائده الاولى ، وخصوصاً ما كان منها في الفخر او الوصف . لقد كان من الحق أن يذهب الى بغداد لا الى مصر ، سوى انه في ذلك الحين لم يكن قد بلغ من الشعر رتبة تلفت الانظار . ثم ان العمل الذي أخذ يقوم به في مصر لا يدل على انه قصدها كشاعر ؛ فقد كان يومذاك حدثاً يسقي الماء في المسجد الجامع[٧] ليكسب معاشه .

---

(١) الاحرار ١٢ آب سنة ١٩٣٣ (٢) وفيات الاعيان ١ : ١٥٠
(٣) ديوان خ ٢٧١ (٤) خ ٤٧٢ (٥) ديوان خ ٢٨١ — ٢٨٢
(٦) الاغاني ١٢ : ١٣٦ (٧) مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط — الانبارى ٢١٣

أفما كان باستطاعته ان يفعل ذلك في دمشق أو حمص ، او في بلد اقرب من مصر ؟

يلوح لي أن أبا تمام اراد أن يبتعد عن اهله فقد أسلم وحده ، دون اهله؛ فلم تكن حياتــه من اجل ذلك هادئة في دمشق ، وهو لم يكن في حمص بعيداً كثيراً عنها ، فشد الرحال الى مصر .

ابو تمام في المسجد — كانت المساجد في صدر الاسلام وما تلاه الى زمن قريب مراكز للعلم فانتهز ابو تمام فرصة وجوده بالمسجد الجامع ، يسقي الماء ، ليزداد علماً . كان يلازم حلقات الادب خاصة فاذا طلب احد ما شربة ماء سقاه ثم رجع الى مكانــه الاول يستمع الى املاء الاديب او مناقشة أصحابه . ولعل ذلك كان في السنوات الاولى من القرن الهجري الثالث ؛ وعمره يومذاك نحو عشرين عاماً . اما بيته :

وان الذي أخدانيَ الشيب الّتي رأيت،ولم تكمُل ليَ السبعوالعشر

فــلا يمكن ان يَعني اكثر من ان شيبه بدأ قبل السابعةَ عشْرةَ منعمره؛ وليس فيه دليل على انه قال القصيدة التي منها هذا البيت يوم بلغهذه السن .

وبعد أن سقى ابو تمام الماء في جامع مصر ، واستقى العلم وفنون القريض ترك السِقاية واتصل برجل حَضْرمي [١] يدعى عيَّاشَ بن لَهِيعة [٢] وأخـذ بمدحه ، ولكن عياشا لم يزد على أن كان يعد ابا تمام ويمنّيه ثم يمطله . فما مر عام حتى ضاق الشاعر ذرعاً وعاتب عياشا بقوله [٣] :

---

(١) حضرموت : مقاطعة في جنوبي جزيرة العرب ؛ وطيء ايضاً من عرب الجنوب
(٢) هكذا يضبطها ابن خلكان ١ : ٣١٣ (٣) ديوان خ ٣٩٥ – ٣٩٧

الفطر والاضحى قد انسلخا ، ولي أمل ببابك صائم لم يفطر .
حول ، ولم ينتج نداك ، وانما تتوقع الحبلى لتسعة اشهر .[١]

ولما لم يجد ابو تمام من عياش سوى مطل على مطل أخذ يهجوه هجاء مراً ، ثم هجاه ايضاً بعد موته مما لم يعرف الا عن مسلم بن الوليد[٢] .

أصبحت اقامة ابي تمام الآن في مصر ضنكاً ، لضيق ذات يده ، وضيق مذاهبه في بلد انشبت فيه العصبيات (الفتن) :

بمصر ؛ وأي مأربة بمصر وقد شعبت اكابرها شعوب[٣]

وذلك في الاعم الاغلب بين عامي ٢١٠ و ٢١١ هـ[٤] وما بعدهما .

وكان اهله قد حرصوا على أن يرجع اليهم ، وأخذت نفسه تنازعه ، غير أن كبر نفسه كان يأبى عليه ذلك وهو الذي قال :

ما آب من آب لم يظفر بحاجته ولم يغب طالب بالنجح لم يئب[٥]

ثم يذكر حنان امه فيقول :

وكم عدوية من سبي عمرو لها حسب اذا انتسبت حسيب
لها من طيء أم حصان نجيبة معشر ، واب نجيب
تمنى أن يعود لها حبيب منى شططا ، واين لها حبيب ؟

---

(١) الفطر عيد ينتهي به صيام رمضان ، والاضحى عيد يقع بعد سبعين يوماً من عيد الفطر - اما منزل عياش فكان بالاسكندرية ، راجع الديوان خ ص٥٠٣ البيت الثالث ؛ وص ٣٢٣ البيت الثالث عشر

(٢) ديوان خ ٤٩٥ ، « ؟ »

(٣) خ ٤٧٣ ، اي مات اكابرها

(٤) الطبري ٣ : ١٠٨٦ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٤ - ١٠٩٩

(٥) في نهاية الارب للنويري ٣ : ٩٥ ما أب من اب . . .

ثم يبدو حنينه أيضاً الى دمشق واصحابه فيها ؛ ويذكر ما مر عليه في دمشق بعد خمسة أعوام وشهرين كانت كلها اسى وضنكا تصدى فيه لهجر اهله واسفهم ، ثم لبذل ماء وجهه، وبعد هذا كله آب بالخيبة .

نأيت فـلا ما لا حويت ، ولم أمتع ؛ فامتعَ ؛ اذ فُجعت بالمـال والاهل
بخلت عـلى عرضي بما فيه صونـه رجاء اجتناء الجود من شجر البخل
عصيت شبا حزمي لطاعة حيرة دعتني الى ان أفتح القفل بالقفل[1]
وابسُط من وجهي الذي لو بذلته الى الارض، من نعلي ، لماانقبت نعلي
وكان ورائي ، من صريمة طيء ومعن ووهب ، عن امامي ما يُسلي
فلم يك ، ما جزَعت نفسي ، من الاسى ؛
ولم يك ، ماجزَعت قومي ، من الثكل[2] .

في هذه الاثناء هاجى الشعراء في مصر وهاجوه . ولكن مقامه في مصر لم يطل بعد ذلك كثيراً بل تركها آيباً الى سورية ، وهو لا يزال شديد التأثر بالمذهب العلَوي .

وظل ابو تمام في مصر الى عام ٢١٤ على الاقل لانه ادرك فيها مقتل عمير بن الوليد الباذغيسي الخراساني عامل مصر الذي قتل في ربيع الاول سنة ٢١٤ ﻫ في اثناء فتنة داخلية ؛ وقد رثاه وحضر للتعزية به[3] .

الرجوع الى سورية فالعراق — رجع ابو تمام الى سورية ، ولعله لم يصل اليها قبل ٢١٥ — ٢١٦ ﻫ فسعى ليتصل بالمأمون وهو يومذاك يتجول

---

(١) راجع ص ١١ (٢) ديوان خ ٤٢٢

(٣) الديوان خ ص ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٢٨٩ — ٢٩٠ ؛ خصوصاً ص٣٦١ س ٣ والطبري ٣ : ١١٠١

في سورية بعد ان خرج الى حروب الروم وانتصر مراراً [١] ، فلما دخل عليه مدحه [٢] ولكنه لم يظفر منه بما يؤمل ولا بادنى مما يؤمل ، بل بدر من الخليفة نحو الشاعر ما صرفه عن بغداد مرة واحدة . فان المأمون كان قد انقلب على آل علي ، فاوغر صدره ان يرى ابا تمام يمدحهم ويعرض ببني العباس [٣] .

طاف ابو تمام الآن في ما بين النهرين ، وفي ارمينية ، وفي شمال سورية ؛ ولكنه قضى معظم اوقاته في المَوْصل . ولعله في اثناء هذا التجوال صار اليه البحتري وهو يومذاك في حمص [٤] .

في خراسان — بعد موت المأمون (٢١٨هـ/٨٣٣م) امن ابو تمام ؛ وكثرت قصائده ، وبزغ نجمه ؛ فلما سمع به المعتصم حمله اليه فقضى عنده مدة لم ير فيها ما يضارع طموحه فتركه وولى وجهه شطر خراسان ليمدح واليها عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وقد اشتدت القلاقل فيها من اثر بابك ؛ وانتهز الشاعر الفرصة فاتصل بالقائد ابي دلف العجلي ، والقائد حيدر بن كاوس الافشين ، وابي سعيد محمد بن يوسف الثغري . ولعله بقي في خراسان

---

(١) غزا المأمون ارض الروم عدة مرات بين ٢١٥ و ٢١٧ هـ : الطبرى ٣ : ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٩

(٢) لعل ابا تمام لقي المأمون في دمشق ؛ اما القصيدة التي مدحه بها فهي : دمن ألمّ بها فقال سلام — ديوان خ ٢٧٩ ؛ وفي ابياتها انها اول ما قاله الشاعر بعد رجوعه من مصر (٣) ديوان خ ١٦٢ — ١٦٤

(٤) هناك خلاف بين على لقاء ابي تمام والبحتري ؛ راجع الاغاني ١٨ : ١٦٩ ؛ وفيات الاعيان ٢ : ١٣١

الى اواخر عام ٢٢٢ ﻫ حينما تركها عبد الله بن طاهر قادماً الى سامرا ومعه بابك الخرمي فوصلها في صفر عام ٢٢٣ﻫ (١) .

في منتصف سنة ٢٢٣ﻫ (٨٣٨م) تجهز المعتصم لمحاربة الروم قاصداً عمورية(٢)، وهكذا لم يرجع شاعرنا الى سامرا مع المعتصم الا في مطلع سنة ٢٢٤ﻫ او آخر ٢٢٣ . وما كاد الخليفة يستقر بسامرا حتى انشده ابو تمام قصيدته السائرة على وجه الدهر : « السيف أصدق انباء من الكتب » .

هنا يعترضنا امران اولها زمن ذهابه الى الحج فانه يقول في ديوانه انه حج مع ابي سعيد الثغري (٣) ؛ ونعلم من موضع آخر في الديوان (٤) ان ابا سعيد حج حِجة يغلب على الظن انها كانت بين ٢٢٢ — ٢٣٠ ؛ وهي على الاغلب في عام ٢٣٠ﻫ لولا ان هنالك رواية تقول بموت ابي تمام عام ٢٢٨ . ثم نحن لا ندري اذا كانت حجة ابي سعيد هذه هي التي حج في عامها ابو تمام ؛ ام تلك غيرها ، فيكون الشاعر اذن قد حج مرتين .

والامر الاخر زمن تأليف «ديوان الحماسة» وجُل مانعلمه « ان الثلج اعترضه في همدان بفارس في اثناء ذهابه الى مديح عبد الله بن طاهر » ، وقيل بل في اثناء رجوعه ؛ فاشتغل بتأليف هذا الكتاب ريثما يذوب الثلج ويستطيع الشاعر أن يتابع مسيره . وعلى كل فان ذلك كان في اواخر سني ابي تمام ايضاً .

وفي هذه الاثناء كان الشاعر قد نال حظوة عند المعتصم وعند امراء البلاد ورجال الدولة : كاحمد بن ابي دؤاد ومحمد بن عبد الملك الزيات وجعفر الخياط

---

(١) انظر قصة بابك في الفصل التالي

(٢) انظر الفصل الثاني (٣) ديوان خ ٤٢٣ - ٤٢٥ (٤) خ ٢٩٣

القائد وغيرهم . وقد عُني الحسن بن وهب الآن به عناية فائقة [١] ، وأراد أن يكرمه فطلب منه الشاعر ان يجعله في الموصل ، قيل اختارها لانه قضى فيها زمناً طيباً بعد انصرافه عن المأمون .

في الموصل — ولاه الحسن بن وهب بريد الموصل ولكنه لم يمكث طويلا بل توفي بعد عامين مـن ولايته ، ومهما اختلف الرواة في تعيين سنة وفاته فلن يعدوا ربع ما اختلفوا فيه من سن ولادته [٢] .

مدح ابوتمام الواثق وعزاه بابيه المعتصم عام ٢٢٨هـ ، ثم مدحه بقصيدتين أخريين . غير انه توفي قبل الواثق الذي استعز به الله عام ٢٣٢هـ . ولكن اكثر المصادر تجعل وفاته في سنة وفاة الواثق ، وعلى هذا ترى ان حياته لم تكن اقل من خمسين عاماً بكثير .

ودفن ابو تمام في الموصل [٣] خارج الميدان على حافة الخندق ؛ وتقول العامة : هذا قبر تمام الشاعر [٤] . وقد بنى ابو نهشل بن حميد الطوسي قبة عليه .

رثى ابا تمام كثيرون منهم ديك الجن الحمصي استاذه ، والبحتري تلميذه ومنهم محمد بن عبد الملك الزيات فيما روي وغيرهم [٥] .

صفاته واخلاقه الخاصة — ليس لدينا ما يدل على صفات ابي تمام سوى قول ابن خلكان [٦] : « كان اسمر طويلا فصيح الكلام فيه تمتمة

---

(١) كان الحسن يكتب لابن الزيات ، ثم تولى ديوان الرسائل – الفهرست ص ١٧٧

(٢) راجع ابن خلكان ١ : ١٥٢ (٣) معجم البلدان ٣ : ٣٨

(٤) ابن خلكان ١ : ١٥٣ (٥) راجع العمدة ١ : ٤٣

(٦) وفيات الاعيان ١ : ١٥٣

بسيطة » . وقد نقلها عنه كثيرون ؛ والاّ جملة للانباري : « وكان موصوفاً بالظَّرف وحسن الاخلاق وكرم النفس » . ثم ليس في ديوانه مـا يناقض هذه الاحـكام .

من أجل هـذه التمتمة اليسيرة اشترى له ابو سعيد الثغري غلاماً أديباً فصيحا اسمه الفتح بثلاثمائة دينار ليلقي له قصائده . ولكننا نعلم أنه كثيراً ما كان يلقي قصائده بنفسه . وقيل انمـا كان انشاده قبيحاً [1] وزاد ابن رشيق فقال « وكان في حبيب حبسة شديدة اذا تكلم . . . » فقال فيه مخلد ابن بكار الموصلي [2] .

يا نبي الله في الشعر ، ويا عيسى بن مريم :

انت من أشعر خلق الله ما لم تتكلم !

اما اخلاقه فكانت اخلاق شاعر عباسي؛غير انه لم يكن متهتكاً ،بل كان يأتي ملذاته في ستر .

آله—تزوج ابو تمام ورزق اولاداً مات اولهم على الاغلب في حياتـه — وكان يومذاك وحيداً — ؛ ولكن الرواة حفظوا لنا اسم ابنه تمام فقط ، وهو الذي روى ان اباه قد توفي عام ٢٢٨هـ .

---

(١) الاغاني ١٨ : ٤٧

(٢) العمدة ١ : ٧٠ ، ١٨٤

الفصل الثاني

بيئة ابي تمام وخصائصه

لا اقصد ببيئة ابي تمام دراسة احوال الامبرطورية العربية في مطلع القرن الهجري الثالث كما أخذ علي بعضهم لما أخرجت « ابا نواس »[1]. انني اذا فعلت ذلك لم أعدُ أحد امرين : اما أن اضيع في شعب تلك الدراسة كما يفعل غيري ، فيخرج القارىء لايدري من هو ابو تمام ؛ واما أن اجتزىء باشياءَ عامةٍ لا كبير جدوى تحتها لمن يأخذ هذا الكتاب . على انني سأنهج نهجي في « ابي نواس » فآخذ تلك العناصر والعوامل التي كان لها اتصال بيّن في حياة الرجل . ومن اراد دراسة بيئة الامبرطورية العباسية في القرن الثاني ، او الثالث — وهي يومئذاك مدنية العالم باسره والتاريخ بعصوره — فلا اظنه يفكر أن يراها مجموعة في هذا الكتيّب .

(١) مجلة المقتطف

١ — بيئته الخاصة

اصطكاكه الاول بالشعراء — لما ظهرت مواهب ابي تمام الفنية—وكان قد رحل مـن دمشق الى حمص[١] — كان اكثر اختلاطه بآل عبد الكريم الطائي ، او بعبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن ، كما مر بك في الفصل الاول . ان شبان حمص وشعراءها لم يبلغوا مـن الخلاعة والفتك ما بلغ ابو نواس وعصابته ببغداد وضواحيها ، لقد كان الرأي السائد في حمص مناهضة امثال هؤلاء المتهتكين الذين كانوا يفسقون في ستر . وكثيراً ما كان هؤلاء الخلعاء لا ينجون مـن قبضة رجال الشُرْطة الا بعد لأي او لا يكادون[٢] .

ومع ان مُجّان حمص كانوا يرتادون الميماس[٣] ليشربوا الخمر او ليفسقوا فان ذلك كان حياة خاصة لهم لم يجهروا بها ، ولم يتهتكوا تهتك بشار وابي نواس ومطيع بن اياس[٤] ، وكذلك كان زعيم شعراء الشام (سورية) ديك الجن الحمصي كثير التأثم من الجهر بما كان يغلب على طبعه احياناً مـن حب القصف ، وهو فوق ذلك عَلَوي شديد التقوى . فمن هنا نعلم أن ابا

---

(١) انظر في الفصل الاول خبر اسلامه ص ١١

(٢) راجع شيئاً من اخبار ديك الجن في الاغاني ١٢ : ١٣٦

(٣) الميماس متنزه في حمص كثير الاشجار يتدفق فيه نهر العاصي فيكسبه جمالا ؛ وكان الميماس متنزهاً لحمص ولا يزال ، ولكنه اليوم لمن يقصده .

(٤) راجع « ابو نواس » ص ٧ — ٩ .

تمام لم يقع في بيئة مستهتره كما اتفق لابي نواس .

هنالك ايضاً ملاحظة تصدق على كل زمن وهي ان الداخل حديثا في دين يكون أشد تمسكاً بفروضه وظواهره من أصحاب الدين انفسهم . وابو تمام رغب في الاسلام — تاركاً بلاده واهله [1] — فكان حرياً باجتناب ما يُحمَل منه على غير الاخلاص .

مصر بعيدة عن فساد بغداد — وانتقل ابو تمام الى مسجد مصر يستقي الماء فيه لمعاشه ، ومعنى ذلك انه كان يلازم المسجد منذ الفجر الى ما بعد العشاء — مدة قد تبلغ احياناً ست عشرة ساعة او اقل قليلا — . من اجل ذلك كانت فرص اختلاطه بالعالم الخارجي نادرة جداً فلم تتح له فرص يقتدي فيه بغير رجال الدين واعلام الادب . كان الشاعر يلازم هذا المسجد واقفاً امام حلقة تدريس ، فاذا طلب احدهم شربة ماء اسقاه ثم رجع الى مكانه الاول يختلس الرأي بعد الرأي والرواية بعد الرواية .

ولا ريب عند دارس ان مصر كانت في ذلك غير بغداد تماماً . كانت بعيدة عن فجور الروم وتخنث الفرس وحانات المجوس السرية ؛ أو هي لم تكن في ذلك كما كانت بغداد ، ولم يكن فيها من يطلب الدعابة حتى في المسجد ، امثال عصابة ابي نواس الذين كانوا ينهون الدرس بجملة مجونية على الاستاذ .

ممن استقى ابو تمام علمه ؟ — كل ما نعرف من هذا الشأن ، كما

---

(١) راجع ص ١٤-١٦

جاء في الفصل الاول ، ان ابا تمام حبّب اليه الادب عموما والشعر خاصة فكان يستفيد مما يمر به ؛ ولم نعلم له هنالك اساتذة افذاذاً ولا غير افذاذ ، فهو في هذا الباب عصامي لامع وفّر جميع اوقاته على الاستفادة فلم يترك له اجتهاده متسعاً للهو .

اثر مذهبه فيه — وكان مما اكتسبه ابوتمام في حمص مذهبه العلوي . ونحن نعلم ان اتباع المذهب العلوي اشد الناس محافظة على الفرائض والنوافل وابعدهم في الحماسة الدينية حتى ليكونوا احياناً مفرطين فيما يظنونه التقوى . فهذا ، اذن ، عامل آخر يحجر ابا تمام عن ارتياد اللهو علناً — وهذا شيء نعرفه من حياته .

مقامه عند الممدوحين — رجع ابو تمام من مصر فاقام عند ممدوحين — في الشام وبغداد وخراسان — وكلهم من الخلفاء والامراء ورجال الدولة الذين قاموا على انقاض حاشية الامين الفاسقة في زعمهم . افتظن ان الذين ينقمون من الامين أنه اتخذ شاعراً فاسقا كابي نواس — وهم انما اثاروا عليه هذه التهمة حتى خلعوه وحاربوه ثم قتلوه ليشيدوا دولتهم — يتساهلون في امر دينهم وسلوكهم ليُرمَوا بما رُمي به الذين جاؤا قبلهم؟ كان هذا ايضاً يصد الشاعر عند عبثه اذا اشتهاه .

حياته الخاصة — ولكن هذا كله لم يكن ليمنع الشاعر من اطلاق عواطفه فيما حوله في شيء من الحذر والتستر . فلقد أحب بعض الجواري ، وكثيراً من الغلمان ؛ ويظهر ان عواطفه احياناً كانت تتغلب على مبادئه فيسرف في شرب الخمر ، وانفاق المال ، وفي اتباع اهواء النفس حتى يسف

الى ما انحطّ اليه ابو نواس ؛ لولا انه متكتم قليلا ، وان ابا نواس متهتك مستهتر[١] .

العنصر الشخصي : قوة نفسه وثقته بها — نستطيع ان نقول ان ابا تمام كان من الشعراء الأوَل الذين شعروا بقيمتهم الذاتية شعوراً حقيقياً . لقد رُوي عن جميع الشعراء انهم فاخروا اقرانهم ، واشاروا الى مقدرتهم في أثناء مناقضات متباينة المرامي ؛ ولكن ابا تمام — في اعتقادي — اول من أخذ بالنظر الى نفسه ثم الى شعره مؤكداً صفاتها العالية . انـه لا يكتفي ان ينشرهـا ، بل يتخذ منها موضوعا يتابعه في مواضع كثيرة من قصائده . تراه يقول من مِدحة في عياش بن لهيعة :

— شجى في حلوق الحادثات مشرّق   به عزمُه ، في الترّهات ، مغرّبِ[٢]
كأن له دَيناً على كل مشْرق   من الارض ، او ثأراً لدى كل مغربِ .
— وان نُكبتُ بجد في حُزونته   سهّلتُه ، فكأني منه في لَعِبِ ،
مُقصّرا خطَراتِ الهمّ في بدني   علما بانيَ ما قصرت في الطلب[٣] .

وغيرها مما تجده ايضاً في قصيدته : اهن عوادي يوسف وصواحبه[٤] .

وقد أجمل الاستاذ المقدسي[٥] ذلك فاشار الى « صبره على المشاق لبلوغ المنى ، وشدة اعجابه بنفسه . . . فاذا قرأت ديوانه رأيته مفعما بما يدل على

---

(١) راجع ايضاً الاغاني ٢١ : ٣٤   (٢) الترهات : القفار ، خ ٢٥
(٣) خ ٤٧١   (٤) ديوان خ ٤٣ ، س ١٢٤ وغيرها   (٥) امراء الشعر ١٧٧ — ١٧٨

انــه نشأ مغامراً في سبيل المال والجاه . وقد زادته كثرة اسفاره عزما ومضاء . . . »

فلا عجب ان كان ابو تمام ، اذن ، واثقا بنفسه الى حد الغرور احيانا، يفرِض ما يقوله على الناس فرضا ، ويعتقد آماله قبل أن تقع . ولا تحملن ذلك منه على العفو او العبث فقد جاء به في اعظم مواقفه جِداً ؛ وقد رأينا مثل ذلك في اساوب عبد الله بن المقفع، فهو ايضاً يفرض حِكَمه على الناس فرضاً . لنُصغ الى ابي تمام يقول :

ولقد رجوت ، فهل لديك بحاجة ،

وعلمت انك لا تخيب رجائي .

اني امتدحتك لا لفائدة ، ولا همي جزاء مدائحي بجزاء ؛
لكن اروم به احتياطك ؛ انــه فيما لديك لبغيتي ورجــائي .

فهو يقول : انالا أمدحك طمعاً بالجائزة ، ولا « تملقاً » كما يفعل الشعراء، ولكن لأريك عظمة شعري [1] . . . ثم انظر قوله « انا (من) عرفت »، او قوله :

واني لارجو عاجلا ان تردني مواهبه بحراً ترجّى مواهبي .

وسنرى في مكان آخر ان « آراءه لم تشتبه » ، وانه « فاق فطنة الفيلسوف » [2] .

وقد انتقل هذا الروح الى شعره ايضاً ففخر به وفضّله ، وقارنه بصلة الممدوح ، ثم قرن نفسه بالممدوح :

---

(١) ديوان الاسواد ص ٥٤ وحاشية ٧ ؛ خ ص ٢٧ (٢) خ ٤٣، ٢٤٦، ٤٠٢

— سأجهد حتى أبلغَ الشعر شأوه، وان كان لي طوعاً وليس بجاهد [1]،
فان انا لم يَحْمَدْكَ عنِّي صاغراً عدوُّكَ، فاعلم أنني غير حامد.
— فالبسني مـن امهات تلاده، والبسته من امهات قلائدي. [2]
— ما خالد لي دون ايوب، ولا عبد العزيز؛ ولست دون وليد [3].
خذها مثقفة القوافي؛ ربهـا لسوابغ النعماء غـير كنود
حذّاء تملأ كل اذن حكمة وبلاغـة، وتُدر كل وريد [4].
كالطعنة النجلاء من يـد ثائر باخيه، او كالضربة الاخدود؛
كالدر والمرجان أُلّف نظمه بالشذر في عنق الكعاب الرود.

ويندر ان ترى له مدحة لم يفتخر فيها بنفسه وشعره [5]:

وما كنت ذا فقر الى صلب ماله، وما كان حفص بالفقير الى حمدي.
ولكن رأى شكري قلادة سؤدد فصاغ لهـا سلكا بهياً من الرفد؛
فما فاتني ما عنده من حبائه، ولا فاته من فاخر الشعر ما عندي [6].
— بقواف هن البواقي عـلى الدهر، ولكن اثمـانهن مواض [7].

ثم لا يذهبن بك الظن الى انه يدعي ذلك ويتظاهر به، فقد رُكّب في نفسه؛ روى الاصفهاني [8] ان ابا تمام انشد عبد الله بن طاهر قصيدته « أهن

---

(١) خ ١١٩ (٢) خ ٩٥ (٣) خ ٨٤ = هذا بيت من قصيدة يعتذر بها الى قاضي الدولة احمد بن ابي دوءاد، ويستشفع بخالد بن يزيد فيقول: مثلي في الاعتذار اليك مثل يزيد بن المهلب لما استجار من الوليد بايوب بن سليمان بن عبد الملك، وبعبد العزيز بن الوليد فشفعا له. وما خالد الذي يشفع لي باقل منهما، وما انا باقل من يزيد بن المهلب — امراء الشعر ص ١٧٩ (٤) حذّاء: قارصة (٥) ص ١٧٩–١٨٠ (٦) ديوان خ ١٣٢–١٣٣ (٧) ديوان خ ١٨٨
(٨) الاغاني ١٥ : ٩٩

عوادي يوسف وصواحبه ؟ » فنثر عليه الف دينار ، فلم يَمَسَّ منها شيئاً بل تركها للغلمان يلتقطونها حتى وجد عليه ابن طاهر ، وقطعه زماناً . ثم قلّب ديوانه حتى تصل الى هذه الابيات فتحسب ابا تمام انما يتكلم عن نفسه لا عن الممدوح :

ماذا ترى فيمن رآك لمدحه اهلا، وصارت في يديك مصائرُهْ ؟
قد كابر الايام حتى كذبت عنه[1]، ولكن القضاء يكابره .
لا تنس من لم ينس مدحك، والمنى تحت الدجى يزعُمن انك ذاكره .
بكّر ، فقد بكرت اليك بمدحة غررُ القصائد ؛ خير امر باكره .
لا شيء احسن من ثنائي سائراً ، ونداك في افق البلاد يسايره[2]!

٢ — العناصر المساعدة

دخل ابو تمام بغداد بعد وفاة المأمون ، وقد لبست من الثقافة الاجنبية ثوبا قشيباً بفضل سعيه لترجمة كتب الاغريق خاصة . ويحسن هنا ان نقول : ان ابا تمام جاء بعد ردح من الزمن فرأى الكتب منتشرة ، والثقافة شائعة في الناس . بدأ الخلفاء بالترجمة منذ ايام المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ)، ولكن الثقافات المتضمنة في الكتب المترجمة اقتضت وقتاً حتى انتشرت بين الناس — ولا حاجة الى القول ان فقدان الطباعة كان من اهم الاسباب في بطء هذا الانتشار — .

---

(١) كذبت عنه : انثنت عنه وجبنت ، ومعنى البيت ان الشاعر غالب الايام فقهرها ؛ ولكن قضاء الله هو الذي يغالبه الآن . (٢) ديوان خ ١٥٦

اما الجوالي اليونانية والفارسية والهندية، سواء منها التي اعتنقت الاسلام — قديماً او حديثاً — او التي بقيت على اديان ابائها ، فانها كانت كتبا حية في المجتمعات وحلقات الادب والعلم والجدل . واذا كان بشار بن برد وابونواس وابو العتاهية ومعاصروهم قد رأوا هذه الحركة في اولها ، وتعرفوا اليها في طفولتها فان ابا تمام قد شهد عنفوانها وعاش في إبانها .

الثقافة اليونانية — هزم النفوذ الفارسي في معركتين : الاولى يوم فتك الرشيد بالبرامكة واتباعهم ومواليهم وصنائعهم ، فقضى على نفوذ الفرس في الحكم ، وقلّص ظلهم الوارف عن قصر الخلد ؛ والثانية يوم ترك المأمون مرو واتى الى مدينة السلام، ثم ما عتّم فيها ان اعلن ترك الخضرة والرجوع الى السواد : شعار بني العباس ؛ فقضى على امل الفرس المستتر وراء النظرية العلوية في الخلافة ؛ غير ان ذلك لم يتعرض للثقافة الادبية بشيء .

الى جانب هذه الثقافة الادبية الفارسية ازدهرت ثقافة علمية اغريقية . فبينما كنت ترى الناس يستمعون الى الغناء الفارسي او المنقول عن الفارسية، او تراهم يصغون الى قصاص الخرافات الفارسية او يتفقهون بالادب الفارسي والكياسة الفارسية ، اللذين استخرجهما ابن المقفع وامثاله ، كنت تراهم يتجادلون في الفلسفة اليونانية ويتناقشون في كتب الاغريق العلمية . وكان للهند ايضاً ثقافة رياضية في بلاد الاسلام كلها . وان نعجب فعجبنا من ان العرب لم يستفيدوا من أدب اليونان الفني .

غير ان اظهر هذه الثقافات في شعر ابي تمام الثقافةُ اليونانية ، ولا عجب فقد كانت الزي الشائع بعد المأمون كما ان الثقافة الفارسية كانت الزي في عصر هرون الرشيد . ولعل هذه الثقافة كانت اقرب الى عقلية ابي تمام —

ربما لصلة نسبه بالروم ، وهو لم يتحرر من بيئته اليونانيـــة الا يوم اسلم دون افراد أسرة على ما رأينا .

ثم توفي المأمون وترك وراءه نزعة من الحرية العقلية لم يعرفها الاسلام من قبل ولا عرفها من بعدُ ، واظنه لن يعرفها الى الابد . لقد تناولت هذه النزعة الدين باوسع مظاهرها وفي اقدس مظاهره كالقول في خلق القرآن ، وجدال اهل الكتاب بلا قيد ولا رقيب ، ثم التفكير فيما حفظه الدين من الروايات . وحسبك في هذا المقام ان تعرف ان هذه كانت من قبله كفرا او اقرب شيء الى الكفر . ولا ريب في ان ابا تمـــام احتك بهذه ايضا — وهو الشاعر العالم — واستفاد منها حتى ظهر بعض اثرها في حياته وشعره .

الزندقة والشعوبية — يهمنا من هاتين ما يمكن ان يتصل بحياة ابي تمام . اتُّهم حبيب بن اوس بالزندقة ككثيرين غيره ، والزندقة يومذاك تهمة سياسية او دعوى على رجل اتهم بما لا يمسُّ الدين في اساسه . فيكفي ان يكون الانسان متهتكا في قوله دون عمله حتى يرمى بالزندقة . وقد يكون ملحدا كافراً فلا يسمونه الا زنديقاً . من اجل ذلك ترى ان هـــذه الكلمة مطاطة باستطاعتك ان تجمع فيها الاضداد والقرناء . وقد اتهم ابو تمام بها ، قيل لانه لم يصل الظهر في يوم بارد .

اما الشعوبية فلم تظهر في شعر صاحبنا ولا في حياته ؛ ليس ذلك فقط بل انه هجا من اتهموا بها وبالزندقة هجاء مراً . فلا عجب ان بحثنا فيهـــا عند الكلام على هؤلاء .

الاحداث والفتوح — لم يمثل الناحية القومية الدينية بمعناها الواسع

حتى ذلك الوقت شاعر كابي تمام . ثم جرى كثيرون على اثره وحاولوا ان يلحقوا به ، ولم يبلغه ويتقدم عليه غير شوقي .

كان فخر الجاهلي بقبيلته فحسب لايعدو بضعة اباء خوفا من ان يلتقي بمجد قبيلة الشاعر الذي يفاخره ؛ وجاء العصر الاموي فكان الشعر ، الذي نسميه نحن هجاء سياسياً ، فخراً محدوداً وشتائم كثيرة لايعدو ايضاً قبيلة واحدة ، او اسرة واحدة . اما ابو تمام فقد مدح الخليفة ، وهو رأس الامبراطورية العربية الاسلامية ؛ ومدح رجال الخليفة — واكثرهم عرب — اذا كانت سيرتهم واعمالهم في رضى الخليفة ، كما سنرى عند الكلام على فنون ابي تمام . ولقد اجاد الشاعر في جميع هذه القصائد اجادة كبرى ، وخلق منها في ديوانه ناحية بارزة تنجلي فيها نفسه الكبيرة سيفا مسلولا على اعداء الخليفة الداخليين والخارجيين ، ومنطقاً فصيحا ، وشعراً فخماً . والنوجز الان الكلام على خمسة من هذه الاحداث .

١ . **العلويون** — يظهر لنا عطفُ ابي تمام على العَلَويين جلياً في قصائد كثيرة حتى اشرنا في الفصل الاول الى ميله الى هذا المذهب، فلا عجب ان ملأ به شعره . غير ان سياسة العباسيين — منذ ايام المأمون ايضاً — كانت قد تبدلت نحو العلويين[1] .

خرج محمد بن القاسم الزيدي على المعتصم ، فانتقل من الكوفة الى خراسان واقام بالطالقان يدعو الى آل البيت . تمكن عامل عبد الله بن طاهر وهو امير خرسان ، ان يأخذ محمداً ويرسله الى عبد الله ، وارسله عبد الله

---

(١) راجع قصيدته : أظبية حيث استنت الكثب العفر ص ١٦١ — ١٦٦

بدوره الى المعتصم الذي حبسه بسامرا سنة ٢١٩ ؛ ثم ان محمداً احتال في ليلة الفطر ، وقد اشتغل الناس بامر العيد ، للهرب ولم يعرف احد مكانه بعد ذلك . . .[١]

ب. بابك الخرمي — الخرمية « دين الفرح » ، ويعمل اتباعها على الاخذ بالملذات وعلى « الاباحية » فيتزوج الرجل امه او اخته او ابنته ؛ ويؤمنون بتناسخ الارواح . ولهم ناحيه ثانية في مذهبهم هي كره العرب وكره دينهم ، والعمل على ارجاع المزدكية — دين الفرس القديم — ؛ على ان هذه الحركة لم تقو الا بعد اتصالها ببابك في حديث يطول . فلما قويت قام بابك يحارب المسلمين معتصما بجبال البذّ منذ ايام المأمون . وقبل أن يتوفى المأمون أخذ في وصيته على أخيه المعتصم عهداً لزاما بان يتغلب على بابك ولو أنفق كل ثمين . ولقد صدع المعتصم فلم يغز الروم ، ولم يوجّه جيشاً الا الى حرب بابك حتى انتصر عليه[٢] .

اثارت هذه الحادثة حمية ابي تمام الدينية وخلدها في قصائد كثيرة من

---

(١) تاريخ الكامل ٦ : ١٨٠

(٢) طالت حركة بابك عشرين سنة وروي انه قتل في اثنائها ٢٥٥،٥٠٠ انسان ثم تغلب الافشين على بابك واستخلص من في يديه من المسلمات واولادهن . وقد كافأ المعتصم الافشين بعشرين مليون درهما (نحو نصف مليون ليرة ذهبية) . . . وادخل علية الشعراء يمدحونه وامر لهم بصلات ايضاً وذلك في ١٥ ربيع الاول سنة ٢٢٣ فقال فيه ابو تمام قصيدته : « بذ الجلاد البذّ فهو دفين » الطبري (مصر) ١٠ : ٢٣٣ ؛ خ ٣٢٦ ــ ٣٢٨ ؛ تاريخ الكامل ٦ : ١٣٥ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ــ ١٩٣ . والفهرست ٤٨٠ ــ ٤٨٢

عيون قصائده في شعر يتدفق حماسة وبلاغة ، ثم قدم الافشين ببابك الخرّمي على سامرا سنة ٢٢٣هـ فقتل بابك فيها وصلب .

ه. **فتح عمورية** — كان الروم قد انتهزوا فرصة اشتغال المسلمين بحروب بابك فجعلوا يغيرون على البلاد الاسلامية ؛ او يُزوّون اليها بعض الثائرين على سلطة بغداد . وقبيل اسر بابك أغار تيوفيلاوس[1] ، ويسميه العرب : توفيل بن ميخائيل ، على زبَطرة : مولد ام المعتصم ، وقيل بل مولده ؛ وخربها ثم مثّل باهلها . في هذه الاثناء اتصل بالمعتصم ان امرأة هاشمية صرخت ، وقد هاجها العلوج : « وآمعتصماه » . فصرخ وهو على سريره : « لبيك » ونهض من ساعته ، واستعد اعظم استعداد (٢٢٣هـ) .

لقد خرب توفيل مدينة لها ذكرى في قلب المعتصم ، فكان بدهيًا ان يقابله المعتصم بمثل عمله ؛ فسأل عن اعظم مدينة عند الروم ، فقيل هي عمورية ؛ ولعل لذلك سبباً آخر هو ان عمورية بلد الدولة الحاكمة ومولدها واليها تنسب . فانت ترى اذن ان فتح عمورية مغامرة شعرية جميلة فوق ما انطوت عليه من الاهمية التاريخية التي حملت الروم ذلا تلمسه في قصيدة فتح الفتوح[2] . ولا غرو إن اذكى هذا الانتصار نفس ابي تمام زمناً طويلا .

د . **مازيار** — كان مازيار هذا قد اظهر الخلاف على امير خراسان عبد

---

(١) Cf. Finlay, Hist. of Byz. Emp. ch. III. Sect. ii

(٢) السيف اصدق انباء .

الله بن طاهر ؛ وفي عام ٢٢٤ هـ خرج عليه بطرستان وامتنع عن ارسال الخراج . لكن تمكن عبد الله بواسطة احد عماله من ان يقبض على مازيار ويرسله الى سامرا ، فيقتله المعتصم عام ٢٢٥ هـ .

هـ . مروق الافشين — لما ظهرت حركة بابك أُرسل الافشين لقتاله ؛ ولكن الافشين جعل يطاول بابك، فاثارت هذه المطاولة شكاً حوله ، وظنها الكثيرون محاباة للثائر وعطفاً عليه . ثم تتابعت سلسلة من الادلة جعلت الافشين متهما لدى الخليفة : منها ارساله الاموال الى اشروسنة (بين نهر سيحون وبلدة سمرقند) سراً ، قيل لتقوية الدعوة الى الدين المجوسي ، ثم ارجاعه . وقد ثبت ان اهالي اشروسنة كانوا يبدأون كتبهم الى الافشين بهذا العنوان : « الى اله الآلهة . . . » وانه كان لدى الافشين كتاب في الديانة القديمة مُحَلًّى بالذهب والجواهر ؛ وانه كان يكاتب اتباعه ويكاتبونه متربّصين بالعرب الدوائر . وزاد في النقمة على الافشين سعيه بعبد الله بن طاهر ، وطمعه بامارة خراسان مكانه .

كل هذه البينات تجمعت لتدين الافشين فلم ير المعتصم بدا من قتله ؛ ولكن السياسة اضطرته الى تجاهل امره حتى ينجلي الموقف في خراسان ؛ فتركه اميراً عاماً للجند في المشرق ، ولكن جعل على بعض اقسام الجند قادة يطمئن الى ولائهم : منهم ابو سعيد محمد بن يوسف الثغري ، وابو دُلَف العِجلي ، يساعدهما عبد الله بن طاهر والي خراسان .

وتغلب المسلمون على بابك ولم يقتل المعتصم الافشين ، لحرصه على الاستفادة من مواهبه العسكرية في حرب الروم ايضاً بعد ان عزم على مهاجمة عمورية . فلما فُتحت عمورية وغُلبت الروم ؛ ولما خضد الخليفة شوكة الثائرين

في المشرق ومكنه الله من اعناقهم ، لم يبق للمعتصم في الافشين مأربة فقتله وصلبه ، ثم احرقه . فاضاف ابو تمام الى قلائده الخالدة قِلادة جديدة ، وانشد المعتصمَ مِدحة جديدة يبدأها ببسط تهم الافشين ، وينهيها بطلبه الى الخليفة ان يعقد لابنه الواثق ولاية العهد ؛ وذلك عام ٢٢٥ ه [1] :

الحق ابلج ، والسيوف عَوار [2] ، فحذارِ من اسد العرين ، حَذار !

ومنها ، يصف النار التي أُحرق بها الافشين :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سرَّ الزناد الواري :
نارا يساور جسمَه من حرها لهبٌ ، كما عَصفرتُ شق إِزار .
لله من نار رأيت ضياءها ، ضاق الفضاء به على النُظّار .
مشبوبةٌ ، رُفعت لاعظم مشرك ما كان يرفع ضوءها للساري [3] .
صلى لها حياً ؛ وكان وقودَها ميْتاً ؛ ويدخلها مع الكفار .
وكذاك اهل النار في الدنيا [4] همُ ، يوم القيامة ، جُلّ اهل النار .
يا مشهداً صدرت ، بفرحته الى امصارها القصوى ، بنو الامصار [5] .

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٢١٠ ، خ ١٥١ — ١٥٥

(٢) ابلج : ظاهر ، واضح ؛ عوار « ج عارية » مجردة .

(٣) لم يكن الافشين يضيء نارا يهتدي بها السائرون في الليل : اوقد الخليفة لاحراق الافشين نارا ما كان الافشين يوقد مثلها لنفع الناس. (٤) عبدة النار .

(٥) ان الذين اجتمعوا من البلدان المختلفة ليروا مقتل الافشين راحوا فرحين يخبرون بذلك اهل بلادهم .

رمقوا اعاليَ جِذعه فكأنما وجدوا الهلال عشيةَ الافطار [1] .
كانت شماتة شامت عاراً ، فقد صارت به تنضو ثياب العار [2] .
ولقد شفى الاحشاء من بُرَحائها ان صار بابك جار مازَيّار [3]

٣ – خصائص ابي تمام المعنوية

يعلم دارسو اللغات خاصة ، ودارسو الفلسفة والادب ، ان الشعوب تختلف في اساليب تفكيرها . نعلم ذلك مما نراه عندها من بناء جملها ، وتراكيب كلامها ، وانواع مجازها وكناياتها واستعاراتها — كل ذلك حسب بيئتها وتطورها وثقافتها — . وكذلك افراد الامة الواحدة فانهم يختلفون ايضاً في طريقة تفكيرهم — قوة وضعفا ، او بعد غور وقرب متناوَل — ؛ كل حسب بيئته وثقافته واستعداده الفكري والطبيعي .

لم تبرز هذه الظاهرة في شاعر عربي بروزها في ابي تمام ؛ حتى قال النقّاد عن شعره انه معقد ؛ وعن معانيه انها مقتسرة مأخوذة بعنف . على اننا لو انعمنا النظر لوجدناه يفكر بطريقة صحيحة ، ولكنها بعيدة عن مألوف الرجل العادي . ان ابا تمام مثقف حافظ ، مطلع على الفلسفة اليونانية ؛ وهذه

---

(١) حينما نظروا الافشين مصلوباً على الجذع سروا كأنما كان غدهم عيدا : اي كأنهم رأوا هلال شوال الموذن بانتهاء صوم رمضان وبحلول عيد الفطر .

(٢) كان الشماتة لاتليق بصاحبها وتحسب عارا عليه ؛ واما الآن فان الشماتة بالافشين صارت تدفع العار عن اصحابها « لانهم لو لم يفعلوا لعدوا من مناصريه » .

(٣) راجع ص ٣٢

عناصر كلها تتضافر على صبغ تفكيره بصبغة تظهره غريباً في نظر القارىء العادي ، وليس هو على الحقيقة كذلك . ثم أي فضل لشاعر — او لأي رجل آخر — اذا كان يحرك لسانه بما انتجته قرائح الناس ؟

ولقد صدق ابن رشيق حين قال [١] : « وانما سمي الشاعر شاعراً لانه يشعر بما لم يشعر به غيره ؛ فاذا لم يكن عنده توليد معنى ، ولا اختراعه . . . او صرف معنى عن وجه الى وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ؛ ولم يكن له الا فضل الوزن ، وليس بفضل عندي ، مع التقصير . . . » ثم قال : « وانما السبق والشرف في المعنى [٢] ! .

واليك هنا مثالين من تقصير الناس في فهم معاني ابي تمام .

خطأ الآمدي [٣] ابا تمام في قوله :

فاويت بالمعروف اعناق المنى ، وحطمت بالانجاز ظهر الموعد .

فزعم استعارة الظهر للموعد قبيحة ، والمعنى المستخلص من حطم الظهر رديئاً [٤] ؛ ولا ارى الا ان ابا تمام تخيل ان ينجز الانسان وعداً قبل ان يقطعه ثم يستغني عن الوعد مرة واحدة ، فيعطي المعتفين حالا ، فلا يجري الوعد على لسانه . وكل ما في نقمة النقاد منه انه نظر الى المعنى من حيث لم يتعود الناس ان ينظروا اليه من قبل ، ودليلنا على ذلك قول ابي تمام نفسه :

يرى الوعد اخزى العار ، ان هو لم تكن مواهبه تأتي مقدمة الوعد [٥] .

وخطأه الآمدي ايضاً [٦] في قوله :

---

(١) العمدة ١ : ٧٤ (٢) ١ : ٥٧ (٣) الموازنة ٩٥ (٤) انظر شرح الاسود ١ : ٢٦٥ ؛ امراء الشعر ١٨٧ (٥) خ ١٣٠ (٦) ص ٩٩

يقظ ، وهو اكثر الناس إغضا ء على نائل له مسروقِ .

وكل ما في الامر ان الآمدي لم يتعود ايضاً ان يرى النائل (العطاء) مسروقاً . انّ ما يكون مسروقاً ، في رأيه ، فالمال مطلقا ؛ اما ما يعطيه الرجل فلا يمكن ان يكون مسروقاً . ولا ريب عندي أبداً في ان ابا تمام قصد ان الشاعر يأخذ الممدوح بالشعر الجميل حتى يسلبه مالا ما كان ايعطيه اياه لولا هذا الشعر .

وعلى كل فلنذكر ان الآمدي — جد متحامل على ابي تمام ، جد محاب للبحتري [1] .

شغف ابي تمام بالاغراب — لاشك في صدق ما اجراه الامدي على لسان صاحب ابي تمام [2] : « انما اعرض عن شعر ابي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ؛ وفَهِمه العلماء والنقاد في علم الشعر » . وكان مثال ذلك ماجرى [3] يوم قصد ابو تمام عبدَ الله بن طاهر وانشده : « اهن عوادي يوسف وصواحبه ؟ » . . . فقال له كاتبا عبد الله : « لم تقول ، يا ابا تمام ، ما لا يفهم ؟ » فاجابهما فوراً : « لم لاتفهمان مايقال ؟ » فكان هذا مما استُحسن من جوابه .

وبينما تجد في موازنة الآمدي حواراً مساقا ، فيه « لايدفعون ابا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها ، والاغراب فيها والاستنباط لها . . . وان اهتمامه بمعانيه اكثر من اهتمامه بالفاظه ، على كثرة غرامه بالطباق والجناس [4] » ، تراه

---

(١) الاحرار ٢٢ تموز ، و ٥ آب سنة ١٩٣٣ (٢) الموازنة ص ٨
(٣) الموازنة ص ٩ (٤) ص ١٧٠-١٧١

يقول : « وابو تمام يتبهرج شعره عند التفتيش والبحث ، ولا تصح معانيه على التفسير والشرح[1] » . فأحْر بنا عند ذلك ان نتريث في الميل الى ارائه ؛ وان كنا لاندفعه ولا ندفع سواه عن الصواب اذا قال : ان ابا تمام كان يُوغل بمعانيه او يغالي .

ولقد انصف كتاب امراء الشعر [2] في نقل رأي ابن رشيق [3] « فاما حبيب فيذهب الى حُزونة اللفظ وما يملأ الاسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا (ا) وكرها ؛ يأتي للاشياء من بعد ، ويأخذها بقوة » ...

« ويراد بذلك هُيامه بالغريب من المعاني التي يُحتاج في تفهمها الى تأمل ومشقة . تراه يغطي مقاصده بشيء من الابهام ، فاذا كشفته بان لك جمال خلاب يستهويك ويزيدك ترنحاً بها . ومن هنا (تنشأ) هذه الصعوبـة التي يعانيها من يطالع ديوانه ، فانه قد يقف حائراً امام طلاسمه وغموض معانيه، حتى اذا راضت له بالدرس والتفكير رأى فيها مايلَذه من صور جميلة ومعان رشيقة[4] » .

واراني لا اميل الى قول ابي هلال العسكري : « كان ابو تمام يتتبع وحشي الكلام ويدخله في شعره » لما في ذلك من قصر النظر في الامور . أفَترى ابا تمام ينظم القصيدة ثم يبدل كلامها السهل المألوف بالغريب الحوشي ؟ لا لعمري ، والا لكانت كل قصائده كذلك . غير اني اعتقد ذهابَ الناس

---

(١) ص ١٥ (٢) للاستاذ انيس المقدسي ص ١٩٣ — ١٩٤

(٣) العمدة ١ : ٨٤ — ٨٥ (٤) امراء الشعر ص ١٩٤

(٥) كتاب الصناعتين ، مستشهد به في امراء الشعر .

يقول ابن رشيق القيرواني [١] « وللشعراء الفاظ معروفة ، وامثلة مألوفة لاينبغي للشاعر ان يعدوها ولا ان يستعمل غيرها » .

فانت ترى اذن في هذه الفقرة عقلية بعض الناس بجلاء : انهم يحبون ما ألفوه ولو كان غثاً بارداً ، ويعرضون عما يحتاج في جنيه الى قليل من التعب . ترى المجلة التي تنسخ الخفائق وتملأ صفحاتها باشياء تافهة شوهت من كتب التاريخ او المجلات العامية تباع في الاسواق بالالوف ؛ بينما الكتب والمجلات التي تقدم في كل عدد من اعدادها عصارة اراء كبار المؤلفين والباحثين والعلماء والرواد لا تلاقي رواجاً يكفل متابعة جهادها . ذلك لأن الرجل العامي يفضل ان يسمع قصة يعرفها علي ان يستمع الى قصة جديدة يجهد عقله في فهمها او حفظها ؛ وقديماً قالت العامة : « قديم تعرفه خير من جديد تتعرف اليه » .

كل شعر يبدأ نهضة فهو غامض : كذلك الشعر الجاهلي الاول ، فشعر امريء القيس اكثرغموضاً من شعر زهير للزمن الذي بينهما ؛ وشعر الطرماح اشد تعقداً من شعر جرير ! وكذلك شعر مسلم بن الوليد احياناً ، وشعر ابن الفارض ؛ وكذلك ايضاً شعر شكسبير والروائيين الافرنسيين الاول وشعر غوته سيد شعراء المانيا . ولعل اشعار فيرجيل ودانتي لاتخرج على حدود المبدأ الذي نتخذه .

أفنعجب بعدئذ ، اذا رأينا غموضاً في بعض شعر ابي تمام وهو الذى اوجد طريقة الشاميين ، وكان اولَ من حلّى الشعر العربي بالصناعة اللفظية المقصودة ؟

---

(١) العمدة ٢ : ٨٣

فمن اغراب ابي تمام ، اذن ، قوله :

— وقد كانت الارماح ابصرن قلبه فارمدها ستر القضاء الممدد [١] .

— رقيق حواشي الحلم ، لو ان حُلمه بكفك ما ماريت في انه برد [٢] .

— قد كان عُذرة مُغرب فافتضها بالسيف فحل المشرق الافشين [٣] .

— وركب يساقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كف قاطب ؛ فقد اكلوا منها الغوارب بالسرى ، وصارت لهم اشباحهم كالغوارب [٤] .

التشبيه والاستعارة — ويتبع اغراب ابي تمام في المعاني عموما ، بُعدُ تشابيهه واستعاراته . ولكن لايعزبنّ عن بالك ماورد في مكان آخر من

---

(١) خ ١٠٢ ـ يتخيل الشاعر هنا ان للرماح عيونا ابصرت المقتل « من بابك الخرمي » ولكن قضاء الله الذي لم يحن بعد مد بين عيون الرماح وبين قلب بابك سترا امرضها فاضلت المقتل « ونجا بابك » .

(٢) خ ١٢١ – يخبرنا ابو تمام ان الممدوح « محمد بن الهيثم » لين العريكة طيب النفس ، حتى لو ان اخلاقه تجس باليد لما شك انسان في انها ثوب من الحرير رقيق .

(٣) خ ٣٢٦ – ما زالت مدينه البذ « معقل بابك » بكر محصنة بعيدة المنال حتى استطاع القائد الافشين التركي « المشرقي » ان يكون اول بانٍ بها « متزوج بها = اول من اخذها عنوة » .

(٤) خ ٤١ ؛ امراء الشعر ١٩٦ - ١٩٧ – يجعل ابو تمام السير خمرا صرفا « غير ممزوجه » يديرها الركبان بينهم فتورثهم شدة في سيرهم من غير تفكير بمآل ؛ ثم ان اجهاد النياق بالسير قد اذاب سنامها ؛ وكان السير الكثير ايضاً قد انحل هم انفسهم فاصبحت اجسامهم النحيلة كأنما هي سنام الابل .

هذه الدراسة : ذلك ان الناس يميلون الى ما ألفوا ويصدون عما لم يعرفوا . وقد صرح بذلك الآمدي [١] فقال عن ابي تمام : « ولو ... اقتصر من القول على ما كان محذوًا حذو الشعراء المحسنين ... لظننته كان يتقدم عند اهل العلم بالشعر اكثر الشعراء المتأخرين » . وعلى هذا انتقد له « رقيق حواشي الحلم » لانه ما علم احداً من شعراء الجاهلية والاسلام وصف الحلم بالرقة ، وانما يوصف الحلم بالعِظَم والرجَحان والثقل والرزانة ... » [٢] وانتقد له :

من الهيف لو ان الخلاخل صُيِّرت لها وُشُحًا جالت عليها الخلاخل .

فقال « وهذا الذي وصفه ابو تمام ضد ما نطقت به العرب ... » [٣] لأن العرب تجعل الخلاخل ضيقة في الأرجل ، وتحب النساء البدينات . وانتقد له « عرض الدهر » ، « والزمان لا عرض له على الحقيقة » [٤] .

واخذوا على ابي تمام من استعاراته قوله :

فضربت الشتاء في اخدعيه ضربة غادرته قَوداً ركوبا ،

وقوله : « يادهر قوِّم من اخدعيك [٥] ... » فالآمدي لايعترف للشتاء باخدعين « عُرقا العنق » وانما هما للبشر او للاحياء على الاقل . ثم ان الاستاذ ضومط يساير الآمدي بعض الشيء فيقول : « انه (اي ابا تمام) يصور الشتاء بعيرا صعبا وقد ركبه الممدوح فعاصى عليه في سيره فضربه ضربة شديدة في كل من اخدعيه فذل واطاع ؛ ... ان الاستعارة بالكناية في البيت بعيدة عن المألوف ، ويصعب على الذهن تصورها » .

فانت اذا رأيت الاسس التي ، اتخذها النقاد لنقد شعر ابي تمام ، علمت انها

---

(١) الموازنه ٥٦ (٢) ص ٥٧ ثم الى ص ٥٩ (٣) ص ٥٩

(٤) ص ٨٢ (٥) الموازنه ص ١٠٥؛ ١٠٦، ١١٠ ؛ مجلة الكليه اذار ١٩١٤

صحيحة بالاضافة الى انفسهم — اي الى ما الفو وما لم يألفوا — لا بالاضافة الى ما يمكن ان يفهم منها بعد إعمال الفكر . ولا ريب عندنا برجاحة رأي ابن رشيق : « والفلسفة وجر الاخبار باب آخر غير الشعر ، فان وقع فيه منهما شيء فبقدر . ولا يجب ان يجعلا نصب العين ويكونا متكئاً واستراحة ؛ وانما الشعر ما اطرب ، وهز النفوس وهز الطباع . . . » ثم نقل رأي الجاحظ في مكان آخر فقال : « اجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء سهل المخارج . . . فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان . واذا كان الكلام على هذا الاساوب الذي ذكر الجاحظ لذ سماعه وخف محتمله وقرب فهمه وعذب النطق به[1] . . . »

نحن نعلم ان شعر ابي تمام ليس من هذا النوع الذي يقرب فهمه ويعذب النطق به . ولكنه من ذلك النوع الذي تطرب له العقول المثقفة والافكار النيرة واهل الاطلاع الواسع ؛ وكل ذنبه انه بحث عن اوجه للشبه جديدة واستعارات بعيدة عن المألوف اوحى اليه بها اطلاعه الواسع وفكره القوي وروحه الوثاب ، فاستبعدها الناس واستغربوها وحملوا عليه من اجلها .

كثرة اختراعه — قال ابن رشيق[2] : « واكثر المولدين معانيَ وتوليداً فيما ذكره العلماء ابو تمام » ، ولكنه شخصياً يميل الى اعطاء هذا المركز لابن الرومي[3] مع انه قد شركهما فيه قبل بضع عشرة صفحة[4] حيث قال : « واكثر المولَّدين اختراعاً وتوليداً ، فيما يقول الحذاق ، ابو تمام وابن الرومي . . »

(١) العمدة ١ : ٨٣ ثم ١٧١ — ١٧٢ (٢) العمدة ص ١ : ١٨٩

(٣) ص ١ : ١٩٠ (٤) ص ١٧٧

والاختراع عند ابن رشيق خلق المعاني التي لم يُسبق اليها ، والاتيان بما لم يكن منها قط . واما ابن الاثير فاشد تحفظاً في احكامه ؛ جاء في كتابه[1] « قد قيل ان ابا تمام اكثر الشعراء المتأخرين اختراعاً للمعاني ، وقد عددتُ معانيَه المبتدعة[2] فوجدت ما يزيد عن عشرين معنى . واهل هذه الصناعة يُكبرون ذلك ، وما هذا من ابي تمام بكبير ![3] » .

والى هذا ايضاً ذهب ابو الفرج الاصفهاني[4] فقال عنه « شاعر مطبوع ، لطيف الفطنة ، دقيق المعاني ، غوّاص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره » . الا ان النقاد لايتفقون على انه مطبوع ؛ واعتقد انا ان الاصفهاني مسرف في ذلك لما سنراه بعد آن .

قوى الفكر ، غزير المعاني — نجد معانيَ ابي تمام احياناً تتعقد ؛ ولكن لانراها تنحط الى درك ما .

بدأ الآمدي حِجاجه[5] فقال : « ووجدتُ — اطال الله عمرك — اكثر من شاهدته ورأيته من رواة الاشعار المتأخرين يزعمون ان شعر ابي تمام . . . لايتعلق بجيده جيد امثاله ، ورديئه مطروح مرذول » — وعلى هذا سارَ الاصفهاني[6] — « والسليم من شعره النادرِ شيءٌ لايتعلق به احد ، وله اشياءُ متوسطةٌ ، ورديئة رذلة جداً » . وكيلا ترسخ في ذهن القارىء قوة

---

(١) المثل السائر ١ : ١٩٣ (٢) لاشك في انه يقصد المخترعة . انظر العمدة ١ : ١٧٧ (٣) راجع النماذج في الفصل الثالث : الحكمة والزهد . (٤) الاغاني ١٥ : ٩٦ (٥) الموزنه ص ١ (٦) الاغاني ١٥ : ٩٦

القسم الثاني من هذا الحكم يتبع الاصفهاني قوله هذا برأي قيّم فينصف ابا تمام من المتعصبين عليه في ذلك الحين[١]، ويدافع عنه دفاعاً مجيداً » .

***

نظر ابو تمام الى نفسه فرأى قوة فكره ورأيه فقال[٢] :

فاسمع مقالة زائر ، لم تشتبه   أرآؤه عند اشتباه البيد .
— ليت شعري ماذا يريبك مني ،   ولقد فُقت فِطنة الفيلسوف .

وانت كيفما قلبت في ديوانه تجد فكراً لايكل عن المدى بل يزداد دائماً قوة ونُضْجا ، وكأنك من معانيه امام سيل لاينقطع . ويكفيه فخراً انه ضرب تلك الفكرة السخيفة القائلة : « ما ترك الاوائل شيئاً للاواخر » ضربة تركتها اكذوبة ، وافهم الكثيرين ان قول عنترة « هل غادر الشعراء من متردم ؟ لاتعني ان الاقدمين اتوا على جميع المعاني ؛ وان بيت زهير :

ما ترانا نقول الا معاراً   او معاداً من قولنا مكرورا

اما منحول او انه حكم شخصي خاص . اما ابو تمام فيقول عن قصائده[٣] :

يقول من تقرع اسماعه :   كم ترك الاول للآخر !

وظفر ابن رشيق[٤] بهذا البيت فقال : « وعلى هذا القياس يُحمل بيت ابي تمام — وكان إماماً في هذه الصناعة غير مدافع — : « يقول من تقرع اسماعه . . . » فنقض قولهم : ما ترك الاول للآخر شيئاً .

وقال ابو تمام في مكان آخر فزاد بياناً وكشفاً !

---

(١) انظر القسم الرابع من هذا الفصل   (٢) ديوان خ ض ٨٤ ، ٤٠٤
(٣) ديوان خ ١٤٣   (٤) العمدة ١ : ٥٧

فلو كان يفنى الشعر افناه ما قرت   حياضك ، منه في العصور الذواهب ،
ولكنه صوب العقول ؛ اذا انجلت   سحائب منه أعقبت بسحائب [1] .

ويؤكد لنا ابو تمام ذلك بقوله عن قصائده :

منزهــة عن السَّرَق المورَّى ؛   مكرمة عن المعنى المعــاد [2] .

ومعاني ابي تمام على كثرتها جيدة؛ وحسبك ان يقول عمارة بن عقيل وقد سمع له ابياتاً من قصيدتــه : غدت تستجير الدمع خوف نوى غد : « لقد تقدم في هذا المعنى من سبقه اليه ، حتى لقد حبب الي الاغتراب [3] ! » ؛ يقصد بذلك قول شاعرنا :

وطول مُقام المرء في الحي مُخلق   لديباجتيــه ؛ فاغترب تتجــدَّد .
فاني رأيت الشمس زيدت محبة   الى الناس ، أنْ ليست عليهم بسرمد !

مصادر معانيه — اذا تركنا المصدر الشخصي لهــذه المعاني ، وما تعلمه ورواه فاستقى منه ، رأيناه كاكثر الشعراء — ان لم نقل كلهم — يأخذ المعانيَ من افواه الذين لايقصدون ان يخرجوا ادباً لانفسهم .

جاء في الاغاني [4] : « مر ابو تمــام بمخنث يقول لآخر : جئتك امس فاحتجبت عني ؛ فقال له : السماء اذا احتجبت بالغيم رُجّي خيرها » . . . قال من روى عنه الاصفهانيُّ « فتبينت في وجه ابي تمام انه قد اخذ المعنى ليضمنه في شعره ، فما لبثنا اياماً حتى أُنشِدت قوله :

---

(١) ديوان خ ص ٦٣ ، س ١٢٤   (٢) ديوان خ ص ٨١
(٣) الاغاني ١٥ : ٩٧   (٤) ١٥ : ١٠٣

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملا ؛ ان السماء تُرجّى حين تحتجبُ .

وبجانب هذا النوع نوع آخر اختلف الناس في تسميته ؛ فقال بعضهم إنه سرِقة ، وقال آخرون انه ابتداع .

يعتقد الآمدي[1] أن ابا تمام شُغف بالشعر ومطالعته « وانه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدَث الا قرأه واطّلع عليه » . لذلك تمكن من سرقة معان كثيرة خفي اكثرها لقلة اطلاع الناس على ما اطّلع عليه ابو تمام » . ويلي هذا القول اثنتان وثلاثون صفحة يرد الآمدي فيها ابياتاً لابي تمام الى المصادر التي سرقت منها ، ويأخذه بها اخذاً شديداً ؛ مع ان الآمدي نفسه يقول حينما يعرض لسرقات البحتري[2] : « انه غير مُنكر ان يكون (البحتري) اخذ منه (ابي تمام) من كثرة ما كان يرِد على سمع البحتري من شعر ابي تمام فيعتلق معناه قاصداً الاخذ او غير قاصد ... » و(ان هناك) ما يشترك فيه الناس ، وتجري طباع الشعراء عليه ؛ ... ثم اضاف الى ذلك قوله[3] : « ان من ادركته من اهل العلم بالشعر لم يكونوا يرَون سرقات المعاني من كبير مساوىء الشعراء وخاصة المتأخرين ، اذ كان هذا بابا ما تعرّى منه متقدم ولا متأخر[4] ... »

لايتسع المقام هنا لذكر عناصر السرقة في الشعر كما فصلها ابن رشيق عن المصادر التي استقى منها[5] ، فالقول متشعب والحكم نسبي ذاتي . غير ان ما لا يغتفر ان يأخذ الشاعر قول شاعر آخر بلفظه المخصوص ، ثم يسوقه في

---

(١) الموازنة ص ٢٣ (٢) الموازنة ص ٢٢ (٣) ص ١٢٤

(٤) الاحرار ٥ اب سنة ١٩٣٣ (٥) العمدة ٢ : ٢١٥-٢٢٦

الفاظ متشابهة او مختلفة . اما اذا راقه معنى ورأى ان بعض نواحيه قد خفيَت على صاحبه فجلاها فهو كأنه قد اخترعه او ابدعه . واحسن مثال على ذلك ما رواه الاصفهاني[1] فقال :

« حدثني هارون بن عبد الله المهلبي قال : كنا في حلقة دعبل ، فجرى ذكر ابي تمام ؛ فقال : دِعبل كان (ابو تمام) يتتبع معانيَّ فيأخذها . فقال له رجل في مجلسه : واي شيء من ذلك اعزك الله ؟ قال : قولي :

وإنِ امرُؤ اسدى اليّ بشافع   اليه ، ويرجو الشكر مني لَأحمقُ .
شفيعك فاشكر في الحوائج ، انه   يصونك عن مكروهها وهو يَخلَق .

فقال الرجل : فكيف قال ابو تمام ؟ فقال : قال :

فلقيتُ بين يديك حاو عطائه ،   ولقيتَ بين يدي مر سؤاله[2] .
واذا امرؤ اسدى اليك صنيعة   من جاهه ، فكأنها من ماله !

... فقال : والله لئن كان اخذه منك لقد اجاد فصار اولى به منك ؛ وان كنت اخذته منه فما بلغت مبلغه ... »

وروى ابن رشيق[3] ان ابا تمام كان يحتذي ابياتاً لاستاذه ديك الجن .

وقد اتفق ايضاً أنِ اختار ابو تمام في حماسته بيتين في الادب لاحد الشعراء[4] نراهما في احدى مقطوعاته ، ومطلعها :

---

(١) الاغاني ١٥ : ٩٧-٩٧   (٢) ديوان خ ٢٤٠

(٣) العمدة ١ : ٦٤   (٤) ٢ : ٢٠

اذا جاريت في خلق دنيئاً　　فانت ومن تجاريه سواء[1]

قيل قالها معرضاً فيها ببعض بني حميد لانه لم يستطع ان يهجوه لما لآل حميد من الحب في قلبه والوفاء من نفسه ؛ ولا ريب في ان هذا نوع من السرقة صحيح ؛ ولو ظفر الآمدي بهذا البيت لألف في مثالب ابي تمام كتاباً جديداً ! .

وحمل دعبل على ابي تمام متهما اياه بسرقة اجمل مراثيه « كذا فليجل »، فزعم ان الشاعر اطلع على الابيات التالية لابي سلمى المزني — من ولد زهير بن ابي سلمى — :

ابعد ابي العباس يُستعتب الدهرُ ؛　　وما بعده للدهر عتبي ولا عذر .
الا ايها الناعي ذفافة ذا الندى　　تعست وشُلت من اناملك العشر !
ولا مَطَرت ارضا سماءٌ ، ولا جرت　　نجوم ، ولا لَذّت لشاربها الخمر .
كأن بني القعقاع ، بعد وفاته ،　　نجوم سماء خر من بينها البدر .
توفيت الآمال بعد ذفافة　　فاصبح في شغل عن السَفْر السَفْر .
يُعزّون عن ثاو تُعزّى به العلى ؛　　ويبكي عليه البأس والمجد والشعر .
وما كان الا مال من قل ماله ،　　وذخراً لمن امسى ، وليس له ذخر .

ثم نظم مرثيته في ابناء حُميد الطوسي فقال[2] :

كذا فليَجِلَّ الخطب ، وليفدح الامر ؛
فليس لعين لم يفِضْ ماؤها عذر .

---

(١) ديوان خ ٥٨٥　　(٢) خ ٣٦٨ — ٣٧٠

بعد ذلك اثبت البيت الرابع بعد وضع كلمة : نبهان مكان القعقاع ؛ وأبدل ذفافة في البيت الخامس بحمد ؛ ثم أثبت البيتين : السادس والسابع من غير تغيير [1] .

والذي اراه ان دِعبِل بن علي الخزاعي هو الذي لفق هذه الرواية ، ونَحَل ابا سلمى هذا الابياتَ التي زعم ابا تمام سرقها . ولا ريب في ان ادنى معرفة بالشعر والبلاغة تحيل الالتحام بين الابيات الثلاثة الاولى وبين الاربعة الاخيرة . فالثلاثة الابيات الاولى اشبه شيء بشعر « قصة بني هلال ، او قصة الزير سالم » ؛ بينما الاربعة التالية تنطق بشاعرية فياضة ، وعبقرية لاشك فيها .

أُعجِب الناس بمعاني ابي تمام كلها : المبتكر منها والمولَّد ، حتى ان كاتباً ما اتكل يوماً على غير ما يجيش في صدره لم يتمالك من ان يضمن لابي تمام ابياتاً هي الآتية، مضافاً اليها البيتُ الاخير :

اذا مارق بالغدر حاول غدرة ، فذاك حريّ ان تئيم حلائله .
فان باشر الاصحار فالبِيضُ والقنا قِراه ، واحواض المنايا مناهله .
وان تبن حيطاناً عليه فانما اولئك عُقّالاته لا معاقله .
وإلا فاعلمه بانك ساخط ودعه ، فان الخوف لا شك قاتله [2] .

---

(١) راجع الفصل الثالث : الرثاء

(٢) غ ١٥ : ٩٧، ٩٨؛ خ ٢٣١ — ٢٣٢ — اذا اراد خائن ان يغدر فيجب ان تصبح نساوءه ارامل ؛ ولن يستطيع ان ينجو من قبضتك ، فلو هرب الى الصحراء لمات جوعاً وعطشاً (هكذا فعل بابك في اول الامر ثم استسلم لما نفد قوته ؛ وهذه الابيات فيه) . العقالات : القيود ؛ المعاقل : الحصون .

وقد اعجب ايضاً بهذه المعاني الشعراء حتى الاعداء منهم كدعبل [1] .

واعجبُ من هذا كله واغرب ان ابا تمام ظل قوي الفكر طول حياته ؛ فانه «اختُرم (مات) وما استمتع بخاطره ، ولا نزح ركيّ (بئر) فكره حتى انقطع رشأ عمره [2] (حبل عمره) » .

٣ — الصناعة في شعر ابي تمام

طربت الاذن السامية عموماً والعربية خصوصاً الى تآلف الالفاظ مما لاتكاد تجده في اللغات الاجنبية اللهم كلمات معدودة ينبهون عليها في كتب الصرف حتى لاتشتبه معانيها في الاستعمال . ولم يعلم ان كاتباً غربياً وشى بها ما يكتبه . غير ان بعضهم يسوق منها احاجيَ ليست من الفن الادبي في شيء ، بل هي سوقية في الاعم الاغلب .

لا اريد هنا ان اجلو هذا البحث لانني احب تركه الى مناسبة اجدر به من هذه .

جرى لسان العربي منذ عهد بداوته بالفاظ متشابهة لفظاً متقاربة معنى ، او متقاربة في المعنى دون اللفظ ، ينتظر السامع ان تأتي معاً ؛ او متضادة في المعنى . كانت هذه تجري على لسان العربي بين الفينة والفينة لا يقصد الى تأليفها او رصفها ؛ وجاء القرآن الكريم فكان فيه منها شيء غير يسير ، ولكنه غير مقصود .

ثم أخذ الناس يفطنون لعذوبتها ، وطلاوتها لجدتها ؛ فقالوا : ان اول من

---

(١) ع ١٥ : ١٠٣ س (٢) غ ١٥ : ٩٨

قصدها وافسد بهـا الشعر صريعُ الغواني مسلم بن الوليد . ولكن لنتخطَّ هذه المقدمة القصيرة الى صَناعة ابي تمام .

في الاغاني[1] عن ابي تمام « وله مذهب في المطابق هو كالسابق فيه جميع الشعراء ، وان كانوا قد فتحوه قبله ، وقالوا القليل منه فان له فضل الاكثار فيه ، والسلوك في جميع طرقه » . وانكر عليه الآمدي هـذا الفضل البتةَ لأن الناس سبقوه اليه ، وقد عد « استكثاره منه وافراطه فيه من اعظم ذنوبه ، واكبر عيوبه[2] » . اما ابن رشيق فيظهر لنا بجلاء انه اميل الى الاصفهاني في تأكيـد فضل ابي تمام[3] ، فقال عن ابي تمام : « انه كان يجيد باب التصنيع[4] » .

الجناس والطباق — لا ريب في ان ابا تمـام كان يتكلف التجنيس والمطابقة ويسوق فيها المعاني البعيدة ايضاً فتغلق على افهام العامة او تكاد ، وتنفر احياناً في الذوق كقوله :

— قرَّت بقرّان عين الدين وانشترت   بالاشترين عيون الشرك فأصطلما .
— ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت   فيه الظنون ، أمذهب أم مذهبُ ؟
— فاسلم سلمت من الآفات ماسلمت   سِلام سلمى ، ومهما أورق السلم .

واهل الصناعة لا يقرون التجنيس بين اكثر مـن لفظتين ، ولكن ابا تمام تعدى ما اتفقوا عليه مرارا . وكذلك قوله :

— خان الصفاء اخ خان الزمان اخا   عنه فلم يتخوَّن جسمه الكمد .

---

(1) ١٥ : ٩٦   (2) الموازنة ٨   (3) العمدة ١ : ٢٢٢ — ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢ : ١٠٢٩   (4) العمدة ٢ : ٢٣

ـ يا يوم شرد يوم لهوى لهوه بصبابتي ، واذل عز تجلدي .

ولكنّ لابي تمام تجنيساً وقف امامه الآمدي مبهوتاً فقال :

« لو اقتصر الطائي على ما اتفق له في هذا الفن من حلو الالفاظ وصحيح المعنى كقوله :

ـ نثرت فريد مدامع لم تنظم ، والدمع يحمل بعض شجو المغرم .

ـ جفوفَ الردى ! أسرعت في الغصُن الرطب ،

وخطب الردى، والموت ! ابرحت من خطب .

ـ قد ينعم الله بالبلوى،وان عظمت، ويبتلي اليه بعض القوم بالنعم [1] .

لسقط اكثر ما عيب عليه» . ثم ان هذه الابيات وامثالها هي التي سماها كتاب امراء الشعر [2] « التأزق البديعي » واليك الآن بضعة ابيات فيها رونق وماء ، « وهي في ابن الزيات » :

تُطلّ الطاول الدمعَ في كل موقف ، وتمثل بالصبر الديار المواثل .

دوارس ، لم يجفُ الربيـع ربوعها ، ولا مر في اغفالها وهو غافل .

فقد سحبت فيها السحائب ذيلهـا ، وقد أُخملت بالنَور منها الخمائل .

مها الوحش ، الاّ ان هاتا اوانس ، قنا الخط ، الا ان تلك ذوابل .

هوى كان خلسا ، ان من احسن الهوى

هوى جلت في افيائه وهو خامـل ! [3]

---

(١) الموازنة ١١٧، واتممت البيتين الاولين من الديوان ، وقد ذكر الآمدي صدرهما فقط

(٢) المقدسي ص ١٨١ وما بعده (٣) ديوان خ ٢٥٥ ـ ٢٥٦

شعره واسلوبه — ليس ابو تمام من الشعراء المطبوعين الذين يجري الشعر على السنتهم عفواً وسليقة ، بلا تكلف ولا محاولة صنعة ؛ وان كنا نخالف الاصفهاني في ذلك بعض الخلاف[1]؛ ولعل هنالك قولا اقدح من قولنا هذا اتى به الانباري في كتابه[2] فقال : « وكان (ابو تمام) يحب الشعر ، فلم يزل يعانيه حتى قال الشعر واجاده . . . » اما الآمدي[3] فابدى رأياً منصفاً اذ قال : « وان كنت تميل الى الصنعة والمعاني التي تستخرج بالغوص والفكرة ، ولا تلوي على غير ذلك فابو تمام عندك اشعر (من البحتري) » .

وكذلك اتفق اكثر النقاد — في نقل بعضهم عن بعض — على ان شعر الطائي ابي تمام متفاوت الجودة : منه الجيد الذي لايتعلق به احد ؛ ومنه الوسط ؛ ومنه الرديء الساقط . وربما كان مصدر هذا الحكم النحيل فكرة تائهة رواها الاصفهاني عن البحتري في مكانين مختلفين من اغانيه[4] . ولقد كان آخر ما نال شاعرنا من ظلم الرواة قولهم : أن « شعره لا يشبه اشعار الاوائل ، ولا (هو) على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة ، والمعاني المولّدة »[5] ألا ان موضع الخطأ في هذا الرأي انصراف نظر صاحبه عن فضيلة شاعرنا في محاكاة الاوائل في مدائحه ، وفي مطالع هذه المدائح خاصة ؛ ثم نسيانه ان ابا تمام يجب ان يخالف الجاهليين في ميزاتهم لانه شاعر مولّد .

---

(١) الاغاني ١٥ : ٩٦ — « ابو تمام . . . شاعر مطبوع ، لطيف الفطنة . . . »

(٢) نزهة الالباء ٢١٤ — (٣) الموازنة ٣

(٤) ١٥ : ٩٦ ؛ ١٨ : ١٦٨ — (٥) الموازنة ٢

ومع كل هذه العيوب فقد عُدَّ ابو تمام اشعر اهل زمانه ؛ وجعله الوزير الشاعر محمد بن عبد الملك الزيات اشعر الناس طراً . وكذلك فضله صديقه الشاعر علي بن الجهم على سائر الشعراء ؛ وفضله البحتري على نفسه[١] .

مذهب ابي تمام في الشعر — يقول الدكتور بروكلمن[٢] : « ان ابا تمام يمثل شعر شعراء المقاطعات تمثيلا صحيحاً ، وهو المثل المحتذى في ذلك » . وعلى هذا الاساس جعل شعراء العصر العباسي قسمين : شعراء بغداد خاصة ؛ وشعراء المقاطعات كالشام وخراسان . وقد اتبعه في ذلك جرجي زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، واحمد حسن الزيات في « تاريخ الادب العربي » . واظن ان مصدر هـذا الحكم جملة وردت في الاغاني[٣] عند الكلام على ديك الجن الحمصي من انه « يذهب مذهب ابي تمام والشاميين » فكأنه جعل للشاميين خاصة مذهباً مخالفا لمذهب اهل بغداد فيه ؛ ثم جعل ابا تمام المتبع ، مع ان ديك الجن اقدم من ابي تمام ، وعنه اخذ ابو تمام بعض شعره[٤] .

اما مذهب الشاميين هذا « فالتصنيع في الشعر » والابلاغ في التجنيس والطباق ، مع العلم اليقين بان « البديع » أدخله الشاعر البغدادي مسلم بن الوليد على الشعر ، وافسده به على ما قالوا .

---

(١) الاغاني ١٥ ، ٩٦ ، ٩٧

(٢) Geschicte der arabischen Litteratur, Saite 86

(٣) ١٥ : ١٣٦ (٤) راجع ص ١٢ ، ١٣ ، ٢٢ من هذه الدراسة .

نظمه -- كان في ابي تمام ابطاء[1] وكان يُكره نفسَه على قول الشعر اكراها ؛ فلا غرو ان ظهر ذلك على شعره [2] . يفعل ذلك ليقتسر المعنى البعيد ، او الاستعارة التي يتخيلها ، او التجنيس الذي يطلبه . وربما نصب القافيه التي تروقه وجهد في سَوق البيت اليها، مع ان ذلك يخالف لمذهب الشعراء المطبوعين . ان البيت يجب ان يأتي بقافيته ؛ على ان الشعراء الذين يجمعون القوافي اولا ثم يبنون عليها الابيات ليسوا قلائل .

وابو تمام من الذين يُعنَون بتهذيب شعرهم ؛ فمن شواهد ديوانه على ذلك :

– اليك ارَحنا عازب الشعر، بعدما تمهَّل في روض المعاني العجائب [3] .
– نشْرٌ يسير بـه شعر يهذبه فكر يجول مجال الروح في الجسد [4] .
– اولى المديح بان يكون مهذبا ما كان منـه في أغرّ مهذبِ [5]

وهو يريد بذلك ان يُبلغ شعره الغاية .

– ساجهد حتى أُبلغ الشعر شأوه ، وان كان لي طوعا وليس بجاهد [6] .
– سيّرت فيـك مدائحا فتركتها غررا تروح بها الرواة وتغتدي [7] .

نعلم ان ابا تمام نصح للبحتري في اتباع خطـة في النظم تُخرج شعره مسبوكا ، ولا ندري اذا كان قد اتبعها هو فكانت له مذهباً ؛ او انهـا موعظة محضة . وعلى كل فان فيهـا أن ينهض الشاعر في السحر بعد ان

---

(١) الاغاني ١٢ : ٦٧ (٢) العمدة ١ : ١٣٩ (٣) خ ٤٣
(٤) خ ٢٩٢ (٥) خ ١٤ (٦) خ ١١٩ (٧) ١٣٧

يكون قد اخذ لنفسه قسطاً من الراحة ؛ ويكون خلياً من هم او غم . ثم ليجعل النسيب رقيق اللفظ رشيق المعنى . وليكن مدحه مُظهراً مناقبَ الممدوح مشرّفاً مقامه؛ وليجتنب في كل ذلك المعانيَ المجهولة والالفاظ الرزية[1]؛ ثم ليقصد الى ما استحسنه الماضون وليترك ما اجتنبوه . بعدئذ خصه بهذه النصيحة الثمينة : « واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعةَ الى نظمه[2]» .

هذه الوصية تصدق على ما نرى في قصائد شاعرنا ولكنها تخالف الرواية التي يتمسك بها ادباء كثيرون[3] من انه رُوي عن بعض الشعراء ان ابا تمام انشده قصيدة احسن في جميعها الا في بيت واحد . فقال له : « يا ابا تمام ، لو القيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب » ؛ فقال له : « انا والله اعلم منه مثل ما تعلم ؛ ولكن مثَلُ شعر الرجل عنده مثل اولاده : فيهم الجميل والقبيح ، والرشيد والساقط ؛ وكلهم حاوٍ في نفسه . فهو وان احب الفاضل لم يبغض الناقص ، وان هوِي بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر » .

التصريع والتوشيح — لم يكن بنا حاجة الى ذكر التصريع هنا لولا انه سيقودنا الى البحث في التوشيح . لقد جرى الشعراء على تصريع قصائدهم : التزامهم القافية في العروض والضرب من المطالع كقولهم :

— قفا نبك من ذكرى حبيب ومنز(ل)

بسقط اللوى بين الدخول فحوم(ل) .

---

(١) راجع الفصل الثالث — المديح (٢) ملخصة، راجع العمدة ١ : ١٣٩

(٣) الاغاني ١٥ : ٩٦

— الا هبي بصحنك واصبح (ينا) ولا تبقي خمور الاندر (ينا) .
— دع عنك لومي، فان اللوم اغر (اء) وداوني بالتي كانت هي الد (اء) .

وعلى هذا سار ابو تمام في جميع قصائده المهمة الا قصيدة واحدة جعل مطلعها :

سلام الله عـدة رمل (خبت) على ابن الهيثم الملك (اللباب)[1]

ومع ان « المصرّع ادخل في الشعر واقوى من غيره »[2] فقد تساهلوا في المقطعات احياناً لاعتقادهم ان القصائد فقط يجب ان تصرع . وعلى هذا ايضاً سار ابو تمام ، ولكنه كان يصرّع احياناً مطلع البيتين والثلاثة[3] .

التوشيح — استحدث المتأخرون مـن شعراء الاندلس فنا « سمّوه بالموشح ينظمونه اسماطا اسماطاً واغصاناً اغصانا ، يكثرون من اعاريضها المختلفة . . . ويلتزمون قوافي عند تلك الاغصان[4] . . . »

وقد ورد لابي تمام ابيات نستطيع ان نقول انها رائد التوشيح ؛ قسم فيها بعض الابيات الى اقسام متساوية او شبه متساوية، والتزم القافية في آخر كل جزء او جعل في البيت قافيتين فقط . وهذه ابيات مأخوذة من الديوان[5] .

— يقول فيسمعُ ، ويمضي فيسرعُ ، ويضرب في ذات الاله فيوجعُ .
— جبال طواليع ، جبال فوارعُ ، غيوث هواميع ، سيول دوافع

---

(١) ديوان الاسود ١ : ١٢٦، خ ٥٥

(٢) العمدة ١ : ٩٩، راجع ايضاً اختلاف العلماء على ما هي القافية الى ص ١٠١ ثم ص ١١٤

(٣) راجع الديوان خ ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٤٠ الخ الخ

(٤) مقدمة ابن خلدون (بيروت ١٩٠٣) ٥٨٣

(٥) طبع الخياط

انا الحسام ، انا الموت الزؤام ، انا الحرب الضرام ، انا الضرغامة العتد
ايام سيفك مشهور ، وبحرك مسجور ، وقرنك مقصور ، له الطول
ألا سابيل ندى ، الا سبيل بلى ؟ لو كان حيا لاضحى للندى سبل
يعطي فيجزلُ ، او يدعى فينزل، أو يُؤتى لمحمل اعباء فيحتملُ .
ومن فاحم جعد ، ومن قمر سعد ، ومن كفل نهد ، ومن نائل ثمد[1] .

والصق شيء بهذا الموضوع وزن جديد ليس من الابحر الستة عشرة في ابيات هي[2] :

ثقيل ردف دقيق خصر ، شقيق شمس نتيج بدر .
بديع حسن رشيق قد ، مليح خد نقي ثغر .
قضيب بان عليه بدر ، مثال حسن عروس خدر .
ياخصرُ قد كنتُ ذا اصطبار في الحب حتى هتكت ستري .
نمت دموعي على عزائي ، اذ غاب عني جميل صبري .

واحسبني لم اجد له غير بيت واحد فيه كلمة عامية[3] .

الا بكرت معذورة حين تعذل تعرّفني (ملعيش) ما لست اجهل .

وتستطيع ان ترى شيئاً من اللحن الذي اخذه عليه الآمدي في الموازنة[4] .

ولعله اعجاباً بطائيته استعمل « ذو » الطائية بمعنى الذي مرتين : مرة باتفاق الرواة في بيت واحد هو :

---

(١) ص ١٩١ ، ٤٧٩ ، ٤٩٣ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٤ ، ١٢٧

(٢) خ ٤٤٣ (٣) خ ٢٤٥ ، (من العيش) (٤) ص ١٢ وما بعدها

ذا انت وجهت الركاب لقصده   تبينت طعم الماء «ذو» انت شاربه[1]!

ومرة بروايتين في بيت هو :

انا «ذو» عرفت فان عرتك جهالة   فانا المقيم مقامة العذال[2]

وقد رواها الاسود «مَن» .

ثم استعمل أنسي مكان أنسيء[3] .

٤ ـ المتعصبون لابي تمام والمتعصبون عليه

لم يعرف الادب العربي شاعراً اثار جدالا صحيحاً في حياته كابي تمام . جدالا دفع اصحابه الى ديوان الشاعر ينشرون حسناته او سيئاته، ويجادلونك فيها جدالا موضوعياً دقيقاً مفصلا لاريب في انه صادر عن اقتناع .

عرفنا رواة الادب يفضلون امرأ القيس على سائر شعراء الجاهلية، او يرفعون زهيراً فوق النابغة ، او يحكمون لابي نواس على مسلم بن الوليد او لمسلم على ابي نواس في جمل عارضة واحكام عامة قد تستهويك فتصدقها او لا ترضيك فتمر بها غير آبه ولا حافل ؛ وكذلك كان شأن الناس في الانتصار لجرير والفرزدق والاخطل . اما الصراع حول مقام ابي تمام فلا يمكنك ان تشهده مكتوف اليدين؛ ولا تستطيع ان تقول ان الناس يتجادلون في لا شيء .

قد يسبق الى ذهنك ان الناس انقسم رأيهم في المتنبي ، أو انه كان للمتنبي خصوم ، وانه شغل الناس ؛ لكنك اذا درست الاحوال التي نشأت

---

(١) ديوان ص ٤٥   (٢) ديوان خ ٢٤٦ ذو الطائية معناها «الذي» وهي من بقايا اللهجة الحميرية – راجع المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة لاغناطيوس غويدي ، ص ٦   (٣) ص ٣٨٢

فيها خصومة الناس للمتنبي وجدتها تختلف عن تلك التي اثارت الجدل في شعر ابي تمام . ولا يغربن عن بالك انهم يناهضون ابا تمام بشاعر معين هو البحتري ؛ وانهم يجعلون الشاعرين مدار البحث ، ومثار الجدال .

***

المتحاملون على ابي تمام — اذا احببت ان تهتدي الى السر في شدة الحملة على ابي تمام بين الشعراء من معاصريه خاصة فخذ رواية ابي الفرج الاصفهاني [1] « ما كان احد من الشعراء يقدر ان يأخذ درهماً بالشعر في حياة ابي تمام ، فلما مات اقتسم الناس ما كان يأخذه . . . » ولم يكن هؤلاء الشعراء نفراً لا عدد لهم او لا نبوغ فيهم ؛ فقد ذكر ابن رشيق [2] « وليس في المولدين اشهر اسماً من الحسن ابي نواس ؛ ثم حبيب والبحتري ، ويقال انهما اخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد . . . » واما البحتري ، وهو اشهر المولّدين بعد ابي تمام فقد اعترف بتقديم صاحبه فقال : « ان ابا تمام الرئيس والاستاذ . واللهِ ما اكلت الخبز الا به » — « وكان اصل نباهة البحتري ان صار الى ابي تمام في حمص فعرض عليه شعره فاستحسنه ابو تمام ، وكتب الى اهل معرة النعمان وشفع له اليهم . . . » [3] — ثم لم تُعرف للبحتري نباهةٌ وشهرة حتى مات ابو تمام . اما الآمدي فينكر ان يكون البحتري اتصل بابي تمام اتصالَ من يستفيد او يتوصل الى وجاهة ونباهة [4] .

---

(١) الاغاني ١٥ : ٩٨ (٢) العمدة ١ : ٦٣-٦٤

(٣) الاغاني ١٨ : ١٦٨، ١٦٩ (٤) الموازنة ٣-٤

ومن اشهر الذين ناصبوا ابا تمام العداء في حياته دِعبلُ بن علي الخزاعي [1] نسبه الى سرقة معاني الشعراء ، والى انه سرق منه ايضاً [2] ؛ وكان شديد التعصب عليه لا مراء في ذلك .

ومن اخبار الاغاني ان دعبلا أنشد يوماً شعراً وسئل رأيَه فيه فقال : « هو والله احسن من عافية بعد يأس » . فلما قيل له : « انه لابي تمام » ، قال : « لعله سرقه ! » .

***

مهاجاته الشعراء — وقد هجا ابا تمام شعراءُ كثيرون ، فهجا ابو تمام بعضهم ولم يلتفت الى بعض . فمن هؤلاء جميعاً دعبل ومَخلَد بن بكار الموصلي ؛ وهجا ابا تمام ايضاً خالد الكاتب ورماه بافظع ما يرمى به شاب ، وعبد الصمد بن المعذل الشاعر البصري ؛ وعبدالله الكاتب ، ومحمد بن يزيد ، ويوسف السرّاج الشاعر المصري ، وعُتبه ابن ابي عاصم ، ومحمد بن وهب الحِميَري الشاعر ، ومحمد بن الحسن الشاعر [3] .

دفاع ابي الفرج — ويجدر بك ألاّ تمر بقول ابي الفرج وقد جمع فيه كل ما يجب ان يُعلم . قال : « وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف؛ واقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه

---

(١) ت سنة ٢٤٦ ھ   (٢) انظر ص ٤٨، ٥١

(٣) الاغاني ٢١ : ٣٤ ، وفيات الاعيان ١ : ١٥٠ ، العمدة ١ : ٧٠ ، ديوان خ ٤٨٥ — ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ الخ الخ

ويطوون محاسنه ، ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك ليقول الجاهل بهم انهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه الا بأدب فاضل وعلم ثاقب. وهذا مما يتكسب به كثير من اهل هـذا الدهر ويجعلونه ، وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب معائبهم ، سبباً للترفع وطلباً للرئاسة . وليست اساءة من اساء في القليل واحسن في الكثير مسقطة احسانه . ولو كثرت اساءته ايضا ثم احسن لم يُقل له عند الاحسان اسأت ، ولا عند الصواب اخطأت ! والتوسط في كل شيء اجمل ، والحق احق ان يتبع ...

« ... وقد فضل ابا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يشق الطاعنون عليه غباره ولا يدركون — وان جدوا — آثاره ؛ وما رأى الناس بعده الى حيث انتهوا له في جده نظيراً ولا شكلا[١] ... وكان في ابن مهرويه تحامل على ابي تمام لا يضر ابا تمام هذا منه ، وما اقل ما يقدح مثل هذا في مثل ابي تمام »[٢] .

انصار ابي تمام وخصومه المتأخرون — بعدئذ مضى الكتاب والادباء يؤلفون في فضائل ابي تمام ومثالبه ؛ ولكن من سوء حظنا وحظ ابي تمام وحظ الادب انه لم يبق سوى موازنـة الآمدي وهو اشد الناس تعصباً عليـه واكثرهم محاباة للبحتري[٣] . ولو بقي لنا كتاب الصولي في اخبار ابي تمام، وكتاب السميسطاني في اخباره والمختار من شعره ، وكتاب

---

(١) الاغاني ١٥ : ٩٦ (٢) ١٢ : ٦٧ ، راجع ايضاً طبعة بولاق ١٢ : ٧٠

(٣) الاحرار ٢٢ تموز ، ٥ آب سنة ١٩٣٣

المرزباني، وكتاب الخالديين (محمد وسعيد) في اخبار ابي تمام ومحاسن شعره[1] لكانت آراء كثير من الكتاب قد اختلفت. ومن الذين الفوا في مثالب ابي تمام ابو القاسم الحسن بن بشر بن يحيي الآمدي[2] وابو ضياء النصيبي[3] وابو العباس احمد بن عبيد الله القطربلي[4] ورجل اسمه عبد الكريم[5].

ولا يزال قوم منذ ذلك الحين يدخلون المشادة بين اصحاب ابي تمام واصحاب البحتري. واعتقد ان كثرة الاعتماد على موازنة الآمدي في استخراج حسنات الشاعرين وسيئاتهما لا يرجع بكبير جدوى، لأن الرجل مغالٍ كما رأيت ومحاب كما علمت، والعلم والفن يحتاجان الى انصاف ونظر. ومن تتبع العيب لم يعجزه ايجاده، ومن طلب العذر لم يفته.

ولقد فطن بعض المؤلفين لتحامل الآمدي على ابي تمام ومحاباته للبحتري فقال ابن النديم «ان في الآمدي تحاملا على ابي تمام»، ونسبه الشريف المرتضى الى الغلو في انتقاد ابي تمام[6]. ويخبرنا ياقوت[7] ذلك بتفصيل واف فيقول: ولابي القاسم (الامدي) تصانيف كثيرة جيدة مرغوب فيها، منها كتاب الموازنة بين ابي تمام والبحتري ... وهو كتاب حسن وان كان قد عيب عليه في مواضع منه، ونسب الى الميل مع البحتري فيما اورده والتعصب على ابي تمام فيما ذكره ... فانه جد واجتهد في طمس محاسن

---

(١) الفهرست ص ١٩٠، ١٩٢، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٤٠

(٢) الاستانة ١٢٨٧ هـ؛ وبيروت (٣) الفهرست ص ٢١٣

(٤) الفهرست ٢١١؛ الموازنة ص ٥٦ (٥) العمدة ٢ : ١٩٢

(٦) الشهاب في الشيب والشباب (قسطنطينية ١٣٠٢) ص ٤ — ما بعدها

(٧) معجم الادباء ٣ : ٥٩

ابي تمام وتزيين مزذول البحتري ...» وياقوت لا ينكر فضائل البحتري بل يقول : « لو انصف (الآمدي) وقال في كل واحد بقدر فضائله لكان في محاسن البحتري كفاية عن التعصب بالوضع من ابي تمام »(١) .

***

الموضوع المزمن! — اما نحن فلا نزال حتى اليوم متمسكين بقول نرويه حيناً عن المتنبي هو : « انا وابو تمام حكيمان ، والشاعر البحتري . » وآونة نجريه على لسان ابي العلاء المعري فنزعمه يقول : « ابو تمام والمتنبي حكيمان ، والشاعر البحتري ». ولا أحسب ان تلميذاً درس الادب ولم يطلب اليه مناقشة هذا القول المأثور والموازنة بين الشاعرين ، حتى اصبحت مناقشة هذا القول « موضوعاً مزمناً » .

ووجه الغرابة ان مثل هذه المناقشة المبنية على تحامل الآمدي بناء غير علمي ليست اولى بالنظر من المقارنة بين ابي نواس ومروان بن ابي حفصة ، او بين البحتري نفسه وبين ابن الرومي على قلة دوران هذا بخلَدنا . والمقارنة — حفظك الله — لا تكون بين المتنافرين حيث الفرق بيّن ، ولا المتقاربين حتى التماثل ؛ وانما تكون بين اثنين جريا في عنان واحد وانطلقا في سبيل واحدة واتحدا في الهدف ، ثم اختلفا في الاجادة ، وتباينا في الاسلوب ، وتفاضلا في المعاني .

---

(١) وقد مر بك كثير عن تحامل الآمدي ، راجع ص ٣٧ وما بعدها .

فاذا اردت ان تقارن بين الطائيَيْنِ فخذ من ديوانيها قصيدتين في فن واحد ، ومعنى واحد ، ومن بحر واحد وعلى روي واحد ثم قارن بينهما. لكنك اذا اردْت المناقشة على اساس «عذوبة الفاظ البحتري وغريب معاني ابي تمـام » فانما تفعل شيئاً يستطيع ان يقوم به صغار التلاميذ لوضوح قصده ومحجته ، بله أنه شيء بَدَهي ليس خليقاً ان يحشر له التلاميذ مـن اقصى التخوم فيحبسوا انفسهم ساعتين كاملتين ، ثم يخرجون بقولهم : ان البحتري « عذب الالفاظ وابا تمـام غريب المعاني » . اليست مقارنتنا بـين ابي تمام الحكيم والبحتري الشاعر كمقارنتنا بين عبد الله بن المقفع وبشار بن برد ، او بين زهير بن ابي سلمى والسندباد البحري ؟

لنأخذ اذن قصائد معينة للشاعرين او فنونا بعينها ثم نطلب من التلاميذ ان يكتبوا عنهـا فيظهر لنا حينئذ مدى تفكير تلاميذنا ومدى احاطتهم بالخصائص الصحيحة وقوة فهمهم للظلال الدقيقة التي توحي جمال الشعر وتميز المعنى من اخيه .

ابو تمام مؤلف — لا إخالني اعرف شاعراً مؤلفا قبل العصر العباسي؛ اما في العصر العباسي فقد كان من الشعراء المُقِلّين كتّابٌ (في الدواوين). من هؤلاء الشعراء : عبد الله بن المقفع (الكاتب المنشيء) ، محمد بن عبد الزيات ، سليمان بن وهب ، عمرو بن مسعدة ، احمد بن المدبر ، احمد بن يحيى البلاذري المؤرخ ، والخالديان محمد وسعيد ؛ وغيرهم ممن هم اقل شهرة [1] ؛

---

(١) الفهرست ٢٣٦ — ٢٣٩ ، ٢٤٠ وما بعده .

ومن هؤلاء ايضاً بشير بن المعتمر [1] لانه « نقل من الكتب من معانٍ شتى الى الشعر » .

اما بعد ابي تمام فهنالك البحتري ، وابن المعتز ، والسري الرفاء ، وابو العلاء المعري؛ فهم مؤلفون بالمعنى الذي نفهمه اليوم .

اشتهر ابو تمام بمجاميع الشعر فله كتاب الحماسة ؛ كتاب الاختيار من شعر الشعراء ؛ كتاب الاختيار من اشعار القبائل ؛ كتاب الفحول (في الجاهلية والاسلام ، وينتهي بابن هَرْمة) [2] وله ايضاً من الكتب كتاب اختيار المقطعات ، كتاب المختار من شعر المحدثين ؛ وكتاب نقائض جرير والاخطل . ولا يعرف اليوم من هذه الكتب جميعها سوى كتابين : الحماسة ، ونقائض جرير والاخطل .

يعتقد التبريزي — شارح ديوان الحماسة ، واحد شراح ديوان ابي تمام — ان ابا تمام اشعر في اختياره كتابَ الحماسة منه في شعره . امّا ما كان من سبب تأليفه هذا الكتابَ فهو [3] ان الشاعر كان متوجها الى خراسان ليمدح عبد الله بن طاهر فنزل في اثناء سفره عند صديق له في همذان اسمه ابو الوفاء بن سلمة الهمذاني فاكرمه ؛ فاصبح ذات يوم وقد وقع ثلج كثير قطع السابلة

---

(١) الفهرست ٢٣٠ — ٢٣١

(٢) الفهرست ٢٣٥ ؛ دائرة المعارف الاسلامية : ابو تمام

(٣) راجع ص ١٨

ففهم ابو تمام وفرح ابو سلمة وقال : « وطّن نفسك على البقاء ؛ ان الثلج لا ينحسر الا ، بعد زمان »، واحضر له خزانة كتب فطالعها واشتغل بها وصنف خمسة كتب في الشعر منها كتاب الحماسة ، وصنّف الوحشيات وهي قصائد طوال [١] .

حماسة ابي تمام — جعل ابو تمام كتاب الحماسة عشرة ابواب هي :

١ . باب الحماسة ، وبه سُمي الكتاب ٢ . باب المراثي ٣ . باب الادب ٤ . باب النسيب ٥ . باب الهجاء ٦ . باب الاضياف والمديح ٧ . باب الصفات ٨ . باب السير والنعاس ٩ . باب المُلَح ١٠ . باب مذمة النساء .

ويمتاز ديوان الحماسة بانه جمع مقطعات كثيرة لشعراء مقلين مجهولين لا نرى لهم ذكراً في غيره .

مقلدو ابي تمام — وقلد ابا تمام في عمله هذا كثيرون منهم :

(١) تلميذه البحتري — وقد كان يتشبه بـه وينحو نحوه [٢] — فالّف « كتاب الحماسة » على مثال حماسة ابي تمام [٣] .

(٢) « الخالديان » ، ابو بكر وابو عثمان [٤] . . . ولهما من الكتب كتاب

(١) وفيات الاعيان ١ : ١٥١ ؛ زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ٢ : ٧١ ؛
Cf. Hamasa, Ausgabe Freytags, S. ix
مقدمة ديوان الحماسة (مصر) ص ٣ ؛

(٢) معجم الادباء لياقوت ٧ : ٢٢٧

(٣) الفهرست ٢٣٥ ؛ الفهرست ٢٤١ (٤) راجع ص ٦٦ س

حماسة شعر المحدَثين ...»

(٣) الحماسة العسكرية ، لابي هلال العسكري

(٤) الحماسة ، للاعلم الشنتمري (ت ٤٧٦) .

(٥) الحماسة لابي السعادات هبة الله بن علي الشجري العلَوي (ت ٥٤٢) وتعرف بمختارات الشجري .

(٦) الحماسة لعلي بن الحسن المعروف بشميم الحلي (ت ٦٠١) .

(٧) الحماسة لابي الحجاج يوسف بن المحمد الاندلسي البياسي (ت ٦٥٣)

(٨) الحماسة البصرية ، لصدر الدين علي بن ابي الفرج البصري (قتل ٦٥٩)

الفصل الثالث

نقد فنون ابي تمام وابحاثه

ليس ديوان ابي تمام كبير الحجم بالاضافة الى دواوين امثاله من الشعراء كابي نواس، والبحتري، وابن الرومي وغيرهم ممن لمعوا في سماء الادب العربي وحازوا امارته على الدهر، واتصلوا برجالات العرب والاسلام في السياسة والاجتماع. وابو تمام ككل الشعراء العرب — اذا استثنينا نفراً كالعباس بن الاحنف وعمر بن الفارض وامثالهما — خاض في فنون الشعر جميعها، ولكنه اكتسب شهرته بفنين منها: المديح والرثاء. ومع ان شعره في الرثاء اقل حجماً من شعره في المديح فانه لا يقل عنه قيمة، بل ربما فاقه.

١. المديح — لا يستطيع دارس ان يعتمد في نقد «المديح» على مدائح الشاعر ابداً؛ فهي لا تدل غالباً على المادح ولا على الممدوح دلالة صادقة، لان حماسة الشاعر تزيد او تنقص حسب زيادة امله او نقصه في نوال الممدوح. وكثيراً ما رأينا شاعراً يمدح شخصاً ثم يعاتبه ثم يهجوه؛ ومن هؤلاء ابو تمام.

عرف ابو تمام كيف يصرّف مدحه، فلم ينتفع في ايامه شاعر بدرهم[2]؛

(١) راجع «ابو نواس» الدراسة ص ٢٧

(٢) راجع ص ٦١

واذا علمنا ان المدح ارضاء الممدوح فحسب غفرنا كثيراً من ذنوب ابي تمام ، واهملنا اكثر ما يأخذه به النقاد .

كان الناس في غمرة من الثقافة الفارسية يولون اوجههم شطرها في اكثر امور دنياهم فلم يكن نصيب الادب اقل من نصيب غيره [1] حتى اصبحت بغداد على الحقيقة قطعة من بلاد الفرس . ثم كانت نكبة البرامكة ، وفورة الزندقة ، وصلف الشعوبية ، وفتنة بابك ، ومجيء الاتراك فمال الناس — في الظاهر على الاقل — عن الفرس ميلة واحدة واستيقظت فيهم الروح العربية وحنوا الى البادية والوانها من جديد ؛ مع ان الشعراء لم يكونوا قد انصرفوا عنها قط ، خصوصاً في اماديحهم .

يمتاز مديح ابي تمام باربعة مظاهر كبرى احتاز بها حقوق الشعراء جميعاً .

(١) الاشادة بالقومية العربية والدين الاسلامي : فهو يستمد منها تاريخاً وعظمة وشهامة ينثرها في مدائحه ، وقد استطاع من اجل ذلك ان يفوز باعجاب بني العباس مع احتفاظه بحب آل البيت . ولا يغربن عن بالك ان الميل الى بني علي كان خيانة عظمى يومذاك .

من ذلك قوله في مدح المأمون :

لما رأيتَ الدين يخفق قلبه ؛ والكفر فيه تغطرس وعُرام [2]

---

(١) راجع «ابو نواس» : الدراسة ١٨ — ١٩ ، ٣٢ ، ٣٨ — ٣٩ ، ٥٢ — ٥٤ والمختارات ٣٠ — ٣٢ الخ

(٢) شدة

اوريت زنـد عزائم تحت الدجى اسرجن فكرك ، والبلاد ظلام .
فنهضت تسحب ذيل جيش ساقـه حسن اليقـين ، وقاده الاقدام ،
حتى نقضت الروم منه بوقعـة شنعاءَ ليس لنقضهـا إبرام ؛
في معركَ ، اما الحمـام فمفطر في هبوتيـه والكُماة صيام ،
ما كان للاشراك فورة مشهد والله فيه ، وانت ، والاسلام !

ومن ذلك قوله ايضاً :

لم يُقْرَ هذا السيفُ هذا الصبرَ في هيجاءَ ، الا عز هذا الدينُ[1] .

ومدح الواثق فقال :

يا ابن الخـلائف : ان بردك ملؤه كرم ، يذوب المزن منه ، واين :
نور من الماضي عليك ؛ كأنه نور عليه ، من النبي ، مبين .
يسمو بك السفّاح ، والمنصور ، والـ ـمهدي ، والمعصوم ، والمـأمون .
فرسان مملكة ، اسود خلافـة ظل الهدى غاب لهم وعرين .
قوم غدا الميراث مضروبا لهم سُور عليه من القُران[2] حصين .
قد اصبح الاسلام في سلطانها ؛ والهند بعض ثغورهـا والصين .

وليس احسن في هذا المقام من الاكتفاء بالاشـارة الى قصيدة « فتح الفتوح » لشهرتها[3] .

---

(١) ماصبر الناس ، والسيوف بايديهم ، مثل هذا الصبر في حرب ما الا انتصر الاسلام
(٢) القران (بتسهيل الهمزة) لغة في القرآن .
(٣) راجع ص ٣٣ حاشية ٢

وقريب من هذا قوله في مدح ابي سعيد الثغري بعد وقعة بابك :

تالله أدري أ ألاسلام يشكرها   من وقعة،ام بنو العباس، ام أُدد[1]؟
يوم به اخذ الاسلام زينته   باسرها ، واكتسى فخراً به الأبد ؛
يوم يجيء اذا قام الحساب ولم   يذممه بدر ولم يُفضح به أُحُد[2] .
لم تبق مشركة الا وقد علمت —   ان لم تتُب — انه للسيف ماتلد .
فاعذر حسودك فيما قد خُصصت به،   ان العلى حسن في مثلها الحسد !

(ب) استخدام الحوادث القديمة والحديثة : اذا كان لها علاقة بالممدوح او بآله او بقبيلته او بقومه ، ليرفع بها من شأنه ويشهَر مناقبه ويظهر مناسبه ويبيّن معالمه وشرفَ مقامه فتراه لايغفل عن حادثة كبيرة يذكرها او صغيرة يظهر اهميتها[3] .ولذلك اهمية كبيرة تمكننا من تعيين تاريخ اكثر قصائده بشيء يشبه التأكيد .

مدح الشاعرُ ابا دلف العجلي فقال مشيرا الى قومه :

اذا افتخرت يوماً تميم بقوسها،   وزادت على ما وطدت من مناقب
فانتم بذي قار امالت سيوفكم   عروشَ الذين استرهنوا قوس حاجب .

---

(١) القسم منفي تقديره (والله اني لا ادري . . .) ، ادد : قبيلة الممدوح . ـ تالله ادري آلاسلام . . . (؟)

(٢) يوم الحساب : يوم القيامة ؛ بدر واحد غزوتان من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم .   (٣) راجع ص ٥٧

محاسن من مجد متى تقرنوا بها   محاسنَ اقوام تكنْ كالمعائب [1].

ومدح ابو تمام محمدَ بن عبد الملك بن صالح الهاشمي فقال فيه :

نرمي باشباحنا الى ملك   نأخذ من ماله ومن أدبه .
نجمُ بني صالح ؛ وهم انجم ال   عالم من عُجمه ومن عربه .
رهط النبي ، الذي تقطع اسـ   باب البرايا سوى سببه !

وانظر الآن كيف يحاول ابو تمام ان يجاو نسب خالد بن يزيد الشيباني في اجمل إهاب ، ويكسوه من المجد اغلى ثياب .

مطر ابوك ، ابو أهلّة وائل ؛   ملأ البسيطة عُدة وعديداً .
اكفاؤه تلد الرجالَ ؛ وإنما   ولد الحتوف اساوداً [2] واسودا .
ورثوا الابوة والحظوظ ؛ فاصبحوا   جمعوا جدوداً في العلى وجدوداً [3]
ومشوا امام ابي يزيدَ وحوله   مشيا ، يهد الراسياتِ ، وئيدا !
واذا رأيت ابا يزيدٍ في ندى   ووغى ، ومبديءَ غارةٍ ومعيدا
ايقنت ان من السماح شجاعة   تُدمي ؛ وان من السماحة جوداً [4]

---

(١) خ ٤٢ – اذا كان بنو تميم يفتخرون بقوس صاحب وفدهم : حاجب بن زرارة ، التي قبلها كسرى لتكون رهناً عنده كيلا يرعى بنو تميم الا في المواطن التي عينها كسرى لهم على الفرات ، ثم وفوا بذلك ، فانتم يابني شيبان قد حاربتم كسرى وهدمتم عرشه في معركة ذى قار (٦١١ م ؛ عام البعثة) .

(٢) الاساود ج اسود وهو الافعوان ذكر الافعى (الحية) .

(٣) الجدود الاولى : الاسلاف ، والثانية : الحظوظ .

(٤) السماح والسماحة : البذل ، وقصد الشاعر بالكلمة الاولى بذل النفس في الحرب ، وبالثانية بذل المال .

(ح) فخامة الالفاظ والتراكيب : فهو يحب من الالفاظ ما ملأ الاسماع ؛ ومن التراكيب ما شغل الفكر . ثم يحيك حولها اقوالا وآراء يستعيرها من قوى الطبيعة المختلفة كالمطر والبحر ، والنار ؛ والحياة والموت والحرب . . . وبعدئذ يحبكها بحكمة عرفها او اخترعها .

لما تغلب الجيش الاسلامي على بابك مدح الشاعر احد قواده : ابا سعيد محمدَ بنَ يوسف الثغري فقال :

وفي ارشقَ (الهيجاء)، والخيل ترتمي　　بابطالها في جاحم متوقد [1]
عططت، على رغم العدى ، انف بابك　　بعزمك عط الاتحمي المعضد [2] .
فالاّ يكن ولّى بشِلْو مقــدَّد　　هناك ، فقد ولى بعزم مقــدد [3] .
رآك سديد الرأى والرمح في الوغى　　تأزّرُ بالاقدام (فيهــا) وترتدي .
وليس يجلّي الكربَ ، رمحٌ مسدد　　اذا هو لم يُؤنس برأي مسدد !

وافخم من هذا قوله في عبد الله بن طاهر :

اليك جزعنا مغرب الملك كلمــا　　وسَطناه لا صلّت عليك سباسبه [4]

---

(١) ارشق حصن للمسلمين خرج اليــه بابك ليسطو على مال ارسله المعتصم للافشين ؛ جاحم متوقد : جمر شديد الاشتعال .

(٢) شققت عزمه كما يشق الثوب المخطط طولا (لسهولة ذلك) .

(٣) ان لم تتركه مقطع الاعضاء (قتيلا) فقد تركه خائر العزم (مفلولةً جيوشه)

(٤) قطعنا القسم الغربي من الامبرطورية العربية ، فكنا كلما نزلنا في ارض رأينا فيها من آثارك ما يستوجب الثناء عليك .

الى ملك ، لم يلق كلكل بأسه — على ملك الا وللذل جانبه [١] ؛
الى سالب الجبار بيضة ملكه ، — وآمله غاد عليه فسالبه [٢] .
فوالله لو لم يُلبس الدهرَ فعلَه — لافسدت الماءَ القَراح معائبه [٣] .
ويا ايها الساري فسِر غير حاذر — جَنان ظلام [٤] ، او ردى انت هائبه .
فقد بث عبد الله خوف انتقامه — على الليل حتى ما تدِبّ عقاربه !
يقولون ان الليث ليث خفية — نواجذه مطرورة ومخالبه [٥] ،
وما الليث كلُّ الليث الا ابن عثرة — يعيش فُواق ناقة وهو راهبه [٦] !

(د) احتفاظه بمركزه الشخصي : يضرب ابو تمام في الارض الى ممدوحيه فاذا وصل الى ابعدهم مكاناً هان عليه ان يرجع صفر اليدين منه على ان ينال رفده ويحمل في سبيل ذلك شيئاً من المنة ، او يبدي قليلا من التذلل [٨] . واذا انشد فانما ينشد جالساً فاذا اتفق ان طرب الممدوح فوقف [٧] وقف هو ايضاً . وقد سبق القول في انه كان يرفع نفسه الى مركز الممدوح او فوقه

---

(١) لم تحارب ملكا الا ذل .

(٢) هو يسلب ملك الملك الجبار ؛ ومعتفيه يسلبه ماله .

(٣) لو لم تنتشر افعاله في الدهر كله لكانت معائب الدهر قد افسدت كل شيء حتى الماء الصافي

(٤) وسطه ومعظمه

(٥،٦) يعتقد الناس ان الاسد هو ساكن الاجمة ، البادية انيابه واظافره ؛ ولو عقلوا لقالوا ان الاسد (الشجاع) هو من يذنب الى عبد الله بن طاهر ثم يستطيع ان يعيش بعد ذلك مقدار فواق الناقة (مسافة ما بين حلبتين) .

(٧) راجع ص ٢٧—٢٨ — (٨) الاغاني ١٥ : ١٠٠

احياناً ، ويرفع شعره فوق النوال الذي يأخذه ·

***

اما طول القصيدة وقصرها ونوع لغتها والتشابيه فيها والاستعارات، حتى القافية فكانت كثيراً ما تختلف باختلاف الممدوح ؛ وسترى انه مدح ادباء وشعراء كمحمد بن عبد الملك الزيات الشاعر الوزير ؛ وابي دلف العجلي الذي اخذ عنه الادباء والفضلاء والشعراء المجددون ، وقد كان له صنعة في الغناء ايضاً ؛ وعلي بن محمد ... بن بسام ، وكان أديباً شاعراً ؛ وعلي بن الجهم الشاعر البغدادي المشهور ؛ وغيرهم · فهو أحرى ان يُجَوّد في مدحهم · ثم لااستغرب انا أن يمدح ابو تمام ابا المغيث موسى بن ابراهيم الرافقي بخمس قصائد قوافي ثلاث منها : ثاء وسين ، وضاد ويحشر فيها : نبيث ، دئوث ، ميث ، شثوث ، لويث ، قدموس ، شوس ، كردوس ، اريض ، نحيض ، قبيض دحيض ، انيض ... ؛ فالممدوح امير في الشام بدْوي · ولا اظنك تعجب اذا رأيت هذه الكلمات الغريبة في مدحة لآل طوق من امراء عرب الشام :

شجعاء جرتها الذميل تاوكه   أُصُلا اذا راح المطي غراثا ؛
اجُد اذا ونت المهاري ارقلت   رقلا كتحريق الغضا حثحاثا
طلبت فتى جُشَم بنِ بكر مالكا :
ضرغامها   وهِزَبْرها   الدلهاثا ·
لولا اعتمادك كنت في مندوحة   عن برقعيدَ وارض باعيناثا !

اما اذا قلبت الديوان فوصلت الى مدائح الوزير الشاعر محمد بن عبد الملك الزيات فسترى امثال « وصف القلم » او « ديمة سمحة القياد سكوب » · ولا احب ان اسير بك في الديوان بين مدائح الخلفاء والامراء والقواد

والفقهاء ندرس خصائصها معاً فترى ان ابا تمـام كان يصرف المديح حسب حاجته . ثم لاتوقنن ان ماقلته لك قاعدة محكمة . لا ، انها ككل القواعد لها شواذها ؛ وانما الشذوذ برهان على القاعدة .

ممدوحو ابي تمام — يبلغ عدد ممدوحي ابي تمام ستين — اكثرهم من العرب[(١)] ينتثرون في الهيأة الاجتماعية بين الخلفاء : كالمأمون والمعتصم ، والكتاب : كرجل اسمه ابو زيد كان كاتباً لعبد الله بن طاهر . وترى هنا قائمة مفصلة باسماء الممدوحين مع مقامهم الاجتماعي وعدد القصائد التي مدحوا بها ، مثبتا بعد اسمائهم[(٢)]

(ا) آل البيت المالك واسلافهم — عـلي بن ابي طالب وآله ١ المأمون (٢) ، المعتصم (٩) ، الواثق ٣ ، احمد بن المعتصم ٢ ، محمد بن عبد الملك بن صالح ١ ، الفضل بن صالح ١ .

(ب) وزراء الدولة — يحيي بن ثابت ١ ، الحسن بن سهل ٢ ،وهما من وزراء المأمون . محمد بن عبد الملك الزيات ٦ .

(حـ) القواد — خالد بن يزيد بن مَزيَد٧ ، ابنه محمد ١ ؛ ابو سعيد محمد

---

(١) انظر ايضاً امراء الشعر ص ٢٢٩

(٢) العدد المحصور بقوسين فيه شك ينشأ من نسبة القصيدة اليه او لغيره . قارن هذه بما ذكره الدكتور الاسود (١ : ٣١) وبقائمة الاستاذ المقدسي (امراء الشعر ١٧٥ - ١٧٧) ويزاد عليها ما سيرويه الدكتور الاسود في الجزء الثاني وليس في طبعه الخياط .

بن يوسف الثغري ٢٩ ، آل حميد الطوسي ١ ، الافشين حيدر بن كاوس١ ، جعفر الخياط١ ، وابو دلف العجلي (٥) .

(د) الامراء ، ورجال الدولة والقبائل — عبد الله بن طاهر امير خراسان٤ ، آل طوق امراء عرب الشام : مالك بن طوق٨ ، عمر بن طوق٨ ؛ ابو المغيث الرافقي٥ ، اسحق بن ابراهيم المصبعي٤ ، القاضي احمد بن ابي دؤاد١٣ ، القاضي حبيش بن المعافى التنوخي١ .

(ه) رجال الاسر الكبرى — آل وهب (وَلوا الوزارة ، ولكن بعد ابي تمام) : سليمان(٣) والحسن(١٢) ؛ علي بن مرة وابنه الحسن٢ ، احمد بن عبد الكريم الطائي٢ ، داوود بن داوود الطائي٢ ، عمر بن عبد العزيز الطائي١ محمد بن شفيق الطائي١ ، عياش بن لَهِيعة الحضرمي٣ .

(و) الشاعر ابو العباس نصر بن منصور بن بسام٢ ، الشاعر علي بن الجهم١ ، محمد بن حسان الضبي٤ ، غالب بن عبد الحميد الصغدي٤ ، محمد بن الهيثم بن شبانة ٧ ، . . .

اما سائر الممدوحين فهم متفاوتو المنزلة وقد خصهم الشاعر بقصيدة قصيدة ، ومنهم من كان نصيبه اثنتين ، او ثلاثاً في النادر .

٢ الفخر — الفخر ان يمدح الشاعر نفسه او آله او قومه ثم يشيد بذكرهم . وبضاعة ابي تمام في الفخر الخالص قليلة جداً واكثرها فخر بطَيِّء ، ولعله قال اكثره في مصر قبل اي قبل ان تقبل عليه الدنيا . ولا اعتقد ان في فخره ما لا ينطوي على شكوى مرة ؛ وهذا الباب يفيدنا تاريخاً اكثر مما يفيدنا فناً .

اقبلت الدنيا على ابي تمام وزادت ثقته بنفسه فانتقل بالفخر الى قصائد المديح ينثره عند المناسبات ، وخصوصاً اذا كان الممدوحون طائيين : كآل عبد الكريم وآل حميد الطوسي ؛ او من عرب الجنوب الذين منهم بنو طيء كالقاضي احمد بن ابي دؤاد الايادي، وعياش بن لهيعة الحضرمي. وحسبك ما علمت من ذلك عند الكلام على خصائصه . ومن فخره ايضاً :

وهل خاب من جذماه في اصل طيّءٍ : عَدِيّ العديين القلَمّس، او عمرو .
لنا جوهر لو خالط الارض اصبحت ، وبطنانها منه وظهرانها تِبر .
مقاماتنا وقف على الحلم والحجى : فامردنا كهل ؛ واشيبنا حَبر .
اذا زينة الدنيا من المال اعرضت فازين منها عندنا الحمد والشكر .
فمن شاء فليفخَر بما شاء من ندى ؛ فليس لحي غيرنا ذلك الفخر[1] .

وفخَر ابو تمام بقومه ونفسه فانشد :

انا ابن الذين استُرضع الجود فيهمُ وسُمّي فيهم وهو كهل ويافع .
مضَوا ؛ وكأن المكرُمات لديهمُ — لكثرة ماأوصَوا بهن — شرائع .
هم استودعوا المعروفَ محفوظَ مالنا فضاع ؛ وما ضاعت لدينا الودائع .
اذاما اغاروا فاحتوَوا مال معشر اغارت عليهم — فاحتوته — الصنائع .
فكم شاعر قد رامني فقذعته بشعري ؛ فامسى وهو خزيان ضارع .
كشفت قناع الشعر عن حُر وجهه فطيّرته عن فكره وهو واقع .
يَودّ وداداً أن اعضاء جسمه اذا انشدت — شوقاً اليها — المسامع !

(١) ديوان خ ٤٧٥ - ٤٧٦

٣ . الرثاء — يجب ان اقدم البحث في رثاء ابي تمام بالرواية الآتية[1] :

بعد ان فرغ ابو تمام من انشاد قصيدته في ابي دلف العجلي « على مثلها من اربع وملاعب » ، قال (له ابو دلف) : انشدني قولك في محمد بن حميد (كذا فليجل الخطب وليفدح الامر) . . . فانشده (القصيدة) فقال : والله وددت انها فيّ ؛ فقال (ابو تمام) : بل افدي الامير بنفسي واهلي ، واكون المقدم . فقال : بل انه لم يمت من رثي بهذا الشعر » .

☆☆☆

رثاء ابي تمام اقل تكلفاً من مدحه وارق عاطفة . وفي رثائه يظهر لنا ان ذلك الجبار على الخطوب ، القاسي في الشدائد رقيق الحس ، وثيق الوداد . ثم هو لايفقد رشده عند المصيبة ، ولا يشتبه رأيه فيمضيَ في التفجع ويصف ما يدل على التأوه في مبالغات لاجدوى تحتها . انه يبالغ ، ولكن في استعارات وكنايات وتشابيه كما يفعل في مدحه ؛ ثم يبقى على هدوئه فيستطيع طرق المواضيع على نحو ما ترى في بعض اماديحه . الا تعجب حين تسمعه يرثي ابنه الوحيد بقوله ؟

كنت عزيزاً به كثيراً ؛ وكنت صباً به ضنينا .
دافعت — الا المنون — عنه والمرء لايدفع المنونا .
يدير في رجعه اسانا عنه الموت ان يُبينا .

وكثير مما ورد في ديوانه موسوم بهذا الطابع ؛ فمن ذلك قوله :

(١) الاغاني ١٥ : ٩٩ — ١٠٠ ؛ ديوان ـ ٤٠ ـ ٤٣

اصم بك الناعي ، وان كان اسمعا ؛ واصبح مغنى الجود بعدك بلقعا .
فتى ، كلما ارتاد الشجاعُ من الردى
مفراً — غداةَ المأزِقِ — ارتاد مصرعا .
اذا ساء يوماً في الكريهة منظر تصلاه ، علما ان سيحسُن مسمعا .
فان تُرْمَ عن عمر تدانى به المدى — فخانك ، حتى لم تجد فيه منزِعا —
فما كنت الا السيف لاقى ضريبة فقطعها ، ثم انثني فتقطعا .

***

رثاء آل حميد الطوسي — اجاد ابو تمام في رثاء بني حُميد الطوسي خاصة حتى كان من امر ذلك الرواية التي بدآنا بها هذا البحث . ونرى ان رثاءه لآل حميد يختلف عن سائر رثائه . اليس عجيباً ألاّ يكون لابي تمام في بني حُميد سوى قصيدة واحدة في المديح [1] ثم يكون له في رثائهم ثماني قصائد اكثرها على قصر بعضها من عيون قصائده في الرثاء [2] ؟

يظهر ان عَلاقة ابي تمام بآل حُميد كانت صداقة اكثر منها منفعة ؛ وكانت اعجاباً باعمالهم واكباراً لحفاظهم ، وقد كانوا لذلك اهلا . وما قصيدة « كذا فليجل » سوى صورة لنفس محمد بن حميد ؛ نعرف ذلك من

---

(١) جعل امراء الشعر عدد القصائد في مديح آل حميد سته (ص ١٧٦) ؛ ولم يذكر الدكتور الاسود شيئاً من ذلك (ص٣١) عند الكلام على ممدوحي ابي تمام .

(٢) ديوان خ ٣٥٨، ٣٦٦، ٣٦٨، ٣٧١، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٨١، ٣٨٧ مرتين

كتب التواريخ . روى ابن الاثير في اخبار عام ٢١٤ ه ما يلي [١] :

« . . . كمن رجال بابك بين الصخور ؛ فلما صار رجال محمد (بن حميد الطوسي) يصعدون في الجبل ، وصاروا على مقدار ثلاثة فراسخ انحدر بابك اليهم فيمن معه فانهزم الناس ، فامرهم ابو سعيد (الثغري) ومحمد بن حميد بالصبر فلم يفعلوا ، ومروا على وجوههم ، والقتل يأخذهم . وصبر محمد بن حميد مكانه وفر من كان معه غير رجل واحد . وسارا يطلبان الخلاص ، فرأى (محمد) جماعة وقتالا ، فقصدهم فرأى الخرمية يقاتلون طائفة من اصحابه . فلما رآه الخرمية قصدوه لما رأوا عليه من حسن هيئته ، فقاتلهم وضربوا سيفه ؛ ثم اكبوا عليه فقتلوه » .

هذه هي الحادثة التي استحقت الخلود في قصيدة من قصائد ابي تمام فاذا هي :

كذا فليجل الخطبُ، وليفدح الامرُ؛ فليس لعين لم يفضْ ماؤها عذر [٢] .

ومنها :

فتى كلما فاضت عيون قبيلة

دماً ، ضحكت عنه الاحاديث والذكر [٣] .

---

(١) ٦ : ١٦٨ – ١٦٩ في ايام المأمون

(٢) راجع ص ٤٩ ــ ٥٠

(٣) لهذا البيت معنيان ملموحان . (ا) كلما هُزمت قبيلة ما وكثر فيها القتل، كان هو الذي فعل ذلك فيتحدث عنه قومه بالبطولة . و (ب) كلما نزلت مصيبة بقبيلة ما واساها فيتحدث الناس بجوده ومجده .

فتى مات بين الطعن والضرب مِيتة تقوم مقام النصر ، ان فاته النصر .

وما مات حتى مات مضرِب سيفه
من الضرب[1] ، واعتلت عليه القنا السمر .

وقد كان فوت الموت سهلا ؛ فرده اليه الحفاظ المر ، والخُلق الوعر ،

ونفسٌ تعاف العار ؛ حتى كأنما
هو الكفر – يوم الروع – او دونه الكفر !

فاثبت في مستنقع الموت رجله ، وقال لها : من تحت اخمصك الحشر .

غدا غُدوة ، والحمد نسج ردائه ؛ فلم ينصرف الا واكفانه الاجر .

تردى ثياب الموت حمراً ؛ فما دجا
له الليل الا وهي – من سندس – خضر [2]

كأن بني نبهان – يوم وفاته – نجوم سماء خر من بينها البدر .

يعزون عن ثاو تعزّى به العلى
ويبكي عليه البأس ، والجود ، والشعر .

وأنىّ لهم صبر عليه (وقد) مضى
الى الموت ، حتى استشهدا : هو والصبر .

---

(١) لو بقي سيفه صحيحا لما استطاع اعداؤه مهما كثروا ان ينالوه بسوء (راجع رواية ابن الاثير ص ٨٣) .

(٢) مات شهيدا (حمرا ثيابه : كناية عن القتل) فدخل الجنة وارتدى ثياباً خضرا من حرير .

ومن اجمل مقطوعات ابي تمام في الرثاء ثلاثة ابيات قالها في القائد الطائي جعفر الخياط ، هي :

رحم الله جعفراً ؛ فلقد كا (م) ن أبياً ، وكان شهماً رحيما .
مثّل الموت ، بين عينيه ، والذ (م) لّ ؛ فكلا رآه خطباً عظيما .
ثم ثارت بـه الحمية قِدما فامات العدى ، ومات كريما !

وكثيرا ما يذهب شاعرنا الى ضرب الامثال واستجماع الحكمة في الرثاء كقوله في محمد بن الفضل الحِمْيَريّ

جف دَر الدنيا ؛ فقد اصبحت تكـ (م) ـتال ارواحنا بغير حساب .
لو بدت سافراً أُهينت ؛ ولكن شغَفَ الناسَ حسنُها في النقاب .
ان ريب الزمان يُحسن ان يُهـ (م) ـدي الرزايا الى ذوي الاحساب !

او قوله في رثاء ابنين لعبد الله بن طاهر ماتا في يوم واحد :

ان الفجيعة بالرياض ، نواضراً ، لاجلُّ منها بالرياض ، ذوابلا .
لهفي على تلك الشواهد منهما لو امهلت حتى تكون شمائلا .
واذا رأيت من الهلال نموه ايقنت أنْ سيصيرُ بدراً كاملا !

***

لم يرثِ ابو تمام من الذين مدحهم الا خالد بن يزيد بن مَزْيد ، واسحق بن ابي ربعي ، وعبد الحميد بن غالب ، وآل بني حميد[1] . وقد عزى ابا

---

(١) ديوان خ ٣٤٧ ، ٣٦٣ ، ٣٥٤ ؛ وراجع ايضاً رثاه بني حميد

سعيد الثغري بولد له [1] . اما الذين رثاهم من غير هؤلاء الذين لم يمدحهم فبضعة عشر شخصاً منهم اقرباء بعض الممدوحين . ولم يرث ابو تمام المعتصم بقصيدة مستقلة ، بل ادخل رثاءه في تهنئة ابنه الواثق بالخلافة .

نمر في ديوان ابي تمام بطائفة من الابيات رثى الشاعر بها بعض آله واخوانه ، فاذا قرأتها لم تشك قط في ان الشاعر تسيل نفسه لوعة واسى ، وان الاسى كان من نفسه في قرارتها . اما رثاؤه لغيرهم فكان قسم منه يشبه ما تقدم ويشف عن عاطفة متأصلة ، وقسم منه يشف عن عاطفة مكتسبة تكاد تعرفها من قوله في رثاء خالد بن يزيد بن مزيد :

وكنا جميعاً شريكيْ عِنان ، رضيعي لَبان ، خليلي صفاء
وكنت اراه بعين الجلال وكان يراني بعين الاخاء [2]

وكثير من شعره في الرثاء على هذا النمط ؛ وقد اجاد في سائر مراثيه اظهارَ الاسى وان لم يكن يحسه احساسه في رثاء ولده الوحيد . اما انه « كان يتخذ موت الميت سبباً ليعرب عن احزان نفسه لانه من اولئك الذين صحب الحزن نفوسهم [3] » فحكم يصيب هوى من نفوس الذين تعمقوا في دراسة ابي تمام ، ولكن يعترضهم في سبيل اعتقاد ذلك قلة الرثاء في ديوان الشاعر . ثم اذا نحن كابدنا وجاهدنا واستشهدنا لاثبات هذا الرأي لم نخرج بغير ما الفناه في جميع الشعراء المداحين الرثائين من انهم يتصنعون

---

(1) خ ٣٥١ ، ٣٧٩ ، ٣٧٧
(2) خ ٣٤٧ ، ٣٥٠
(3) مردم ، شعراء الشام ص ٥٣

الاسى احياناً ، وكان بعضهم يعد قصائد المديح والرثاء قبل امد ، فاذا فوجئوا بانعام على رجل او بموته لم يحتج احدهم الا الى بضعة ابيات فيها اسم الممدوح او المرثي وفيها ذكر المناسبة ... ثم لنختم هذا البحث بقول ابن رشيق : « وابو تمام من المعدودين في اجادة الرثاء »[1] .

٤ . **العتاب** — يختلف عتاب ابي تمام عن عتاب ابي نواس[2] ، فان ابا تمام لم يعاتب الا على تأخر رفد ؛ لذلك كان من المنتظر ان تكون معاتباته كلها على قلتها[3] في الذين مدحهم . ولكن قد شذ له عن ذلك نحو ثلاث قطع : واحدة عاتب رجلا فيها في نبيذ — وهو رفد ايضاً — واخرى عاتب فيها الحسن بن سهل لانه يميل الى غلامه ، وثالثة في صديق قطعه ...

يتبع ابو تمام في عتابه طريقته في مدحه فهو فيه خشن الملمس ، والعتاب يحتاج الى نعومة ؛ وهو فظ في سَوْقه ، والعتاب يحتاج الى مناسبة ؛ فشاعرنا يقول مثلا :

ابا دلف[4] لم يبق طالب حاجة   من الناس غيري ، والمحل جديبُ .
يسرك اني أُبت عنك مخيَّبا ،   ولم يُر خلق من جَداك يخيب .

ولا اظنك تجهل مقام ابي دلف من ابي تمام وقصيدته فيه « على مثلها من اربع ملاعب » . وقد عاتب القاضيَ احمد بن ابي دؤاد بقوله :

اعلم ، وانت المرء غير معلَّم ،   وافهم — جعلت فداك — غير مفهَّم .

(١) العمدة ٢ : ١١٩   (٢) ابو نواس : الدراسه ٣٤
(٣) خ ٣٩٤ — ٤١٢   راجع ص ٧٩ ، ٨١

ان اصطناع المرء مـا لم تواله   مستكملا كالبرد ليس بمُعلَم !

فعتابه ، على ما ابصرت ، منفّر يزيد في الصد ولا يبقي على الود ، الا ما كان مثل عتابه لابي سعيد الثغري ، وهو نادر ، نحو قوله :

انما البِشْر روضة ، فاذا كا (م) ن ببذلٍ فروضة وغديرُ .
فاقْسِم اللحظ بيننا ، ان في اللحـ (م) ـظ لَعنوانَ ما يُجِنّ الضمير .

٥ . الوعيد والهجاء — يعاتب الشاعر الممدوح تذكرة بصلته واستدراراً ليديه ، فاذا قنط من نواله انقلب اليه يهجوه . الا ان بعض الشعراء يميلون بادئ بدء الى الوعيد والانذار قبل ان يتخطوا الى الهجاء : يفعلون ذلك في اثناء مدح او عتاب . من هذا القبيل ما انهى به ابو تمام قصيدة له في مدح ابي المغيث الرافقي :

وكن كريما تجد كريمـا   في مدحه ، يا ابا المغيث .
— وغدا تَبيَّن كيف غِبُّ مدائحي   ان ملن بي هممي الى بغداد .
ومن العجائب شاعر ضاعت به   هماتـه ، او ضاع عند جواد !

اما تعريضه في اثناء العتاب فمنه :

وانك لا تسر بيوم حمد   تسر به ، وما ألك لا يُساء .
فان المدح في الاقوام ما لم   يشيع بالجزاء هو الهجاء .
— سأقطع ارسان العتاب بمنطق   قصير عناء الفكر فيه طويل
وان امرأ ضنت يداه على امرئ   بنيل يد من غيره لبخيل .

افتشك بعد ذلك في ان هذا تحفز للهجاء ؟

تناول الشاعر بهجائه نحو عشرين شخصاً فيهم ستة اشخاص كان قد مدحهم؛ منهم عياش بن لهيعة ، وقد اختصه باثنتي عشرة قطعة قال واحدة منها بعد موته؛[١] ومنهم ابو المغيث الرافقي هجاه بخمس مقطعات ؛ وله قطعة قطعة في مالك بن طوق ، وصالح بن عبد الله الهاشمي واسحق بن ابراهيم المصبعي . وقيل عرض بهجاء احد بني حميد ولم يهجه لمكان اسرته[٢] .

اصطدم ابو تمام بشعراء كثيرين في مصر وفي العراق بعضهم مشهور كدعبل ومحمد بن ابي يزيد ، وبعضهم اقل شهرة . وهنالك بضع قطع أخرى في اشخاص مختلفين[٣] .

***

لا اعتقد ان ابا تمام نال بهجائه منالا قريباً او بعيداً ، فبعض شعره في هذه الناحية عادي ، وسائره ادنى مرتبة . انه لم يتبع طريقاً معروفاً يصل بها الى غايته فهو لم يعمد الى ما يترك هجاءه اعلق بالقلب والصق بالنفس واسرع الى الحفظ ؛ ولا بلغ به من الحقيقة والمرارة ما يوجع حقًّا ، وان كان قد افحش واقذع في بعضه . لذلك ترى كثيراً من هجائه اشبه بالمديح، حتى انه لو كان مديحاً لما انحط عن شعره الراقي ؛ تأمل ذلك في هجائه عتبة ابن ابي عاصم :

دمن تجمعت النوى في ربعها   وتفرقت فيها السحاب الفرّق

---

(١) راجع ص ١٤ — ١٥   (٢) راجع ص ٤٨ — ٤٩   (٣) ص ١٦، ٦٢

فترقرقت عيني دما فيهـا الى ان خاث مهجتيَ التي تترقرق .
همم الفتى في الارض اغصان المنى غُرست، وليست كل حين تورق .

فهذه من اعلى طبقات المعاني ، ولكنهـا لا تصلح في معرض هجاء .
ومثل ذلك قوله :

يكفيك حزنا ان عقلك ذاهب يبكي عليك، وان جهلك يضحك !

ويندر في ديوانه مثل قوله في عياش بن لهيعة :

صدّق مقالته ان قال ، مجتهداً : « لاوالرغيفِ!» فذاك البُرّ من قسمه .
وان هممت بـه فافتك بخبزته ؛ فانهـا قطعة من لحمـه ودمه .
قد كان يعجبني ، لو ان غيرتـه على جرادقه كانت على حُرمه [1] !

هذه احدى نواحي هجاء ابي تمام لأن له في الاقذاع بضاعة غير قليلة [2] ؛
ولكن هذه البضاعة ليست في الدواوين التي بين ايدينا فقد اغفل الخياط
ما يمس الآداب [3] ، وكذلك لا نطمع ان نراها في « شرح ديوان ابي تمام » [4]

٦. **الوصف** — يجب ان نقسم هذا البحث الى قسمين : الوصف
الخالص اي الذي قيل في الوصف خاصة؛ والوصف الذي جاء في اثناء المديح .
ثم يجب ان نعلم ان باب المديح وان اساوب ابي تمام فيه يغلبان على كل باب من
ابواب الديوان .

---

(١) البر: القمح الجرادق : الارغفة ، الحرم: النساء . . .
(٢) لقد غفل الخياط فاثبت في نسخته اياتاً تلمح فيها الاقذاع لمحا لاشك فيه .
راجع ص ٤٨٦ س ٧ ؛ ٤٨٨ ع ؛ ٤٩٥ هجاء عبد الله الكاتب ؛ ٤٩٣ س ١٥ — ١٨
(٣) ديوان ٤٨٥ (٤) للدكتور ، الاسود ، راجع ص ٣١

تجيش نفس ابي تمام بصورة من صور الطبيعة او بمشهد من مشاهد الاجتماع فلا يكاد يخرج من فيه الا وقد اصبح مقيداً بالصناعة اللفظية ، ممزوجاً بعناصر من الشكوى والفخر وما اليها؛ فهو حقيقة ولكن بلا الوان جذابة ولا صدق في النقل عن الطبيعة . فمن ذلك قوله في غمامة ممطرة :

كالشيعه التفت على النقيب، آخذة بطاعة الجنوب .
لما بدت للارض من قريب تشوقت لوبلها السكوب
تشوق[1] المريض للطبيب، وطرب المحب للحبيب ؛
لذيذة الريق مع الصبيب، كأنما تهمي على القلوب !

اما النوع الثاني فصور بلا حقيقة ابدع فيها الشاعر لما رقشها به من الجناس والطباق وبعيد التشبيه او قريب الاستعارة تبعاً للقصيدة التي استقرت فيها كوصف الخمر أو وصف القلم ، ففيه شيء من الحقيقة في كثير من بعيد الخيال ولطيف التجنيس .

واما الاوصاف التي يجيدها شاعرنا فاوصاف المعارك والحروب ، فهناك تشعر حقيقة ان شعور ابي تمام يغمرك ويستولي عليك فتتصل نفسك بنفسه . ولا بدع ان وصف ابو تمام معركة عمورية واجاد ، فلقد شهدها بنفسه . واذا قرأت له وصفه الخيل في الحرب :

واذا كان عارض الموت سحاً خضلا بالردى اجش هزيما ،
في ضرام من الوغى واشتعال تحسب الجو منها محموما ،
واكتست ضمر الجياد المذاكي من لباس الهيجا دما وحميما ،

---

(١) ربما : تشوفت . . . تشوف . . . .

في مَكَرٍ تلوكها الحرب فيه ؛ وهي مقورَّة تلوك الشكيما.

ايقنت انك ترى تلك الجياد تخوض الغمار امام عينيك وقد ضاقت حومة الوغى بالفرسان وصبر الفريقان ، والموت يتناول الابطال غير آبه للنتيجة ! . .

وصف القلم – من قصيدة يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات [1] :

لك القلمُ الاعلى ، الذي بشَباته
تُصاب ،من الامر ،الكُلى والمفاصلُ [2] .
لُعابُ الأفاعي القاتلاتِ لُعابُه ،
وأريُ الجَنى اشْتارتْهُ ايدٍ عواسلُ [3] .
له ريقة طلّ ، ولكنَّ وقعَها ،
بآثاره في الشرق والغرب ، وابلُ [4] .
فصيحٌ اذا استنطقتَه وهو راكب [5] ؛
واعجمُ ان خاطبتَه ، وهو راجل .
اذا ما امتطى الخمسَ اللطافَ ، وأُفرغت
عليه شِعابُ الفكر وهْيَ حوافل ،

---

(١) راجع ص ٥٣، ٧٧

(٢) الشباة : الحد ؛ اصاب الكلى والمفاصل : احكم الاصابة .

(٣) اللعاب : الريق ؛الاري : العسل ؛ الجنى : القطف او ما يقطف ؛ اشتار : استخرج العسل خاصة ؛ العواسل : المستخرجة للعسل ـ ان قلمك ينفث مرة سما ، ومرة يأتي بالشهد والعسل .

(٤) ريقه طل : قليل الرطوبة (بالحبر) ولكن اثره وابل (مطر شديد) .

(٥) راكب الاصابع . وفي الابيات التالية يصف اخذ القلم بالاصابع . . .

اطاعته اطرافُ القنا ؛ وتقوضت
لنجواه ، تقويضَ الخيام ، الجحافل .

اذا استعزَّ ، الذهن الذكيَّ واقبلت اعاليه ، في القرطاس، وهْيَ أسافل .
وقد رفدته[1] الخنصران ،وسددت ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الانامل ،
رأيت جليلا شأنُه ، وهو مُرْهَفٌ ضنًى[2] ؛ وسمينا خطبُه وهو ناحل .

٧. **الغزل والنسيب** [3] — لا ريب قط في ان هذا الباب في ديوان ابي تمام ادنى فنونه مرتبة عن مستوى مديحه ، « ولم يكن لابي تمام حلاوة توجب له حسن التغزل ، وانما يقع له التافه اليسير في خلال القصائد »[4] لما علمت من خصائصه واسلوبه ، واذا كانت الصنعة قد اكسبت مديحه فخامة واصابة مرمى فانها قد افسدت وصفه وغزله ونسيبه . وسواء رأيت غزله البحت او غزله في ثنايا المديح فانما يروعك منه تلك التشابيه والاستعارات التي قنص بها معانيه الغريبة ، اما العاطفة فلا . واحسن الغزل ما اثار العاطفة لا ما اجهد العقل .

***

لابي تمام غزلان : مؤنث يكاد يقصره على مطالع قصائده في المديح ؛ ومذكر لا تكاد ترى سواه في باب الغزل عنده . فهو اذن ، ان تكلف

---

(١) سددته (٢) دقيق من الضعف .
(٣) ابو نواس : الدراسة ص ٣٧
(٤) العمدة ٢ : ٩٥

الغزل اتى به مؤنثا لقبح الغزل المذكر في المدائح ؛ وان جرى على هواه اكثرَ من الغزل المذكر حتى تنكر ان سبيله غير ذلك . وكيفما قلبت في غزله الخالص فلا ترى فيه سوى شهوة تحرقه يود لو يطفئها عند كل حبيب . وكل عزة نفس في حياته العامة وفي مديحه يضيعها في حياته الخاصة وفي غزله .

لم يُعرف ابو تمام بجبيبة لها اسم معين ولا عُرف له من لها اسم معين ، وكذلك في غزله المذكر فانما تجد بضعة اسماء ، له نحو اصحابها عاطفة عارضة لاتلبث ان تستقر حتى تنتقل ثائرة تبحث عن لهو جديد .

اما نسيبه او غزله ايضاً في اثناء ابيات المديح فيجب ألاَّ نشك ساعة في انه صناعة اكثر منه عاطفة وان كان يستهويك كقوله :

السالبات امرَأً عزيمَتَه بالسحر ، والنافثات في عقده .
لبسن ظلين : ظل امن من الدهر ، وظلا من لهوه ودَده .
—كأن الدمع يُنثر من نظام على تلك المحاجر والخدود .

تريدين المزيد ؛ وليس عندي —
وراء محل حبك — من مزيد !

ومع انه لم يحسن النسيب فقد احسن التخلص منه الى المديح .

واذا كانت اخلاق ابي تمام على ما ذكرنا فمن البدهي ان يكون له مُجون ، سوى ان ناشري ديوانه قد اهملوا ذلك البتة [1] .

---

(١) راجع ص ٩٠

نموذج من غزله :

لا آكلُ التفاحَ ، عمري ، ولو جنيتَه لي من جنانِ الخلودْ .
والله لا أتركُه للقِلى ، لكنني اتركه للخدود !

***

عفَتْ محاسنُه عندي إساءتَه ، حتى لقد حَسُنت عندي مساويه .
هذا مُحِبك أدمى الشوقُ مهجتَه ؛ فكيف تُنكر ان تَدمى مآقيه ؟

***

اي شيء يكونُ احسنَ من صبٍ اديب متيَّمٍ باديب ؟
كادَ ان يكتُبَ الهوى بين عينيـ ـه كتاباً : «هذا حبيبٌ حبيب ! [1]»
غيرَ أني لو كُنت اعشَقُ نفسي لتَنَغَّصْتُ عيشَها بالرقيب .

***

قد قصرنا دونكَ الابصار خوفاً ان تَذوبا .
كلما زِدناكَ لحظاً زِدتَنا حُسناً وطيبا .
مرضت الحاظُ عينيـ ـك فأمرضتَ القلوبا .
ما نُريد الشمسَ والبد ر اذا كنت قريبا ؟

***

اجعَلي في الكرى لعيني نصيباً ، كي تَنالَ المكروهَ والمحبوبا .

---

(١) حبيب الاولى : محبوب ؛ والثانية اسم ابي تمام .

أشركي بين دمع عيني ونومي ، واجعلي لي من الرقاد نصيباً .
كنت أهوى البيض الحسان ، فقد اصبح حبي عن غيرها محجوبا .
قربتها المنى ، وباعدها النأي ، فاضحت مني بعيداً قريبا .
ان تكن مقلتي ، اذا غبت ، تستولي عليها الدموع (حتى تذوبا) .
فلكم نظرة ، تمر بها منك ، لها روعة تشق القلوبا .

***

الحكمة — كون حكمة ابي تمام اشياء ثلاثة (١) علمه وسعة اطلاعه ، و (٢) كثرة تجواله ، و (٣) الثقافة الراهنة .

فاما علمه وسعة اطلاعه فقد مكناه من ان يجيل فكره في تراث الاولين وآراء الشعراء فيستخرج احسنها ، او يصقل بعضها او يشتق منها نواحي جديدة . من اجل ذلك اتهمه الآمدي بسرقات كثيرة [١] . والحق ان ابا تمام حاول ان يزيد هذه المعاني التي اخذها اما بالغوص على اوجهها ، او بكسوتها من الصنعة حلة مجيدة ، وقد احسن في كثير منها :

* واذا تأملت البلاد رأيتها تثري كما تثري الرجال وتعدم .
* فلم يجتمع شرق وغرب لقاصد ، ولا المجد — في كف امرىء — والدراهم!
* لاشيء ضائر عاشق ؛ فاذا نأى عنه الحبيب فكل شيء ضائره .
* اني تأملت النوى فوجدتها سيفاً على صبر الهوى مسلولا .
* ما ابيض وجه المرء في طلب الغنى حتى يسود وجهه في البيد .

---

(١) الموازنة ص ٢٣ — ٥٤ ، راجع ص ٤٧

* وزعمت ان الرزق يطلب اهله   لكن بحيلة متعَب مكدود .
* اذا عُنيت بشأو قلت انيَ قد   ادركته ادركتني حرفة الادب .
* ما آب من آب لم يظفر بحاجته ،   ولم يغب طالب بالنجح لم يَخِب .

ولا ريب قط في ان هذا النوع اعلى انواع حكمه ، واي حكمة تبلغ الى قوله في اصابة المرمى وسهولة التعبير من قوله :

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ؛   ما الحب الا للحبيب الاول !
كم منزل في الارض يألفه الفتى ،   وحنينه ابداً لاول منزل .

فهذه تستحق ان تسير على وجه الدهر اذا استعملنا تعبير ابن رشيق . واما حكمه المستمدة من الثقافة الراهنة فكثيرة الصنعة كثيرة التكلف بعيدة عن اسس « المثل السائر » . لايفهمها الا النحاة ، او الفقهاء ، او العلماء او الفلاسفة . ومن اجل ذلك ايضاً كان يتهم بقول ما لا يفهم كقوله في الخمر مضمنا اشارة نحوية :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها   كتلاعب الافعال بالاسماء ؛

وقوله في العطاء ، وفيه اشارة الى آي من القرآن الكريم (١) :

الود للقربى ، ولكن عُرفه   للابعد الاوطان دون الاقرب .

وعندي ان هذه لاتدعى حكمة ولكنها مجاراة لزمن شهد الثقافات المختلفة من عربية اسلامية او فارسية ويونانية وهندية فاراد ان يقيد معرفته لها بابيات شعره ؛ فكان يضربها امثالا ، ولكنه لم يصب دائماً .

---

(١) الشورى (٤٣) : ٢٣ ؛ البقرة (٢) : ٨٣ ، ١٧٧ ، النساء (٤) ٣٦ : وغير هذه .

غير ان من احسن اقواله في الحكم واختراعه في المعنى قوله الذي اكتسبه من اختباره الخاص لا من الثقافات الشائعة :

* واذا اراد الله نشر فضيلة طويت ، اتاح لها لسانَ حسود .
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يُعرف طيب عَرف العود[1] .

* وطول مُقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه ؛ فاغترب تتجددِ .
فاني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ، انْ ليست عليهم بسرمد[2] .

* لاتنكري عطل الكريم من الغنى ،
فالسيل حرب للمكان العالي .

وتنظّري خبَب الركاب ينُصها محيي القريض الى مميت المال[3]

* ليس الغبي بسيد في قومه ، لكنّ سيد قومه المتغابي[4] .

* سكن الكبد فيه ان من اعـ ظم إرب ألاّ تُسمى اريبا[5] .

٩ . الزهد — كان الشاعر احياناً — اما في العصور المتأخرة فدائماً — ينظم في ابواب الشعر من جميع البحور وعلى جميع قوافيه . فاذا رأينا زهداً لابي تمام فليس معنى ذلك انه تزهد ، فهو لم يبلغ السن التي يلجأ فيها الانسان ليحاسب نفسه على اعماله السالفة فقد مات في اوائل كهولته او في اواسطها على اكبر تقدير . ولم نعلم عارضاً اتفق لابي تمام يدفعه الى الزهد كما كان شأن ابي نواس . وليس لابي تمام في هذا الباب جيد ولا جديد .

---

(١) خشب ذكي الرائحة (٢) دائمة — خ ١٠٠ — ١٠١
(٣) خ ٢٤٦ (٤) خ ٢٠ (٥) خ ٢٧ ؛ الارب : الحاجة

واما الابيات الستة والاربعون التي اثبتها الخياط [1] فهي ركيكة جداً لايعقل ان تصدر عن مثل ابي تمام كقوله :

وأخلص لدين الله صدراً ونية ، فان الذي تخفيه يوما سيظهر .
فلا بد يومـاً ان تصير لحفرة باثنائهـا تطوى الي يوم تنشر .

***

هذا مجمل ما يمكن ان يقال في شاعر ملأ عصراً ، وترك بعده دوياً : شاعر مثّل الاسلام والقومية اجمل تمثيل ، ووقف ديوانه على جلو عظمتها الحقّ في شعر متين .

حُقّ لشعر ابي تمام ان يُحب فهو شعر مملوء بالمعاني ، مزدحم بالصور الجميلة ، مرصوف رصفاً متقناً يدل على براعة لم يظفر بها كل شاعر ؛ بل لم يظفر بها احد سوى حبيب بن اوس . انك لاتجـد قصائد ابي تمام مُزجاة ترفضَ ابياتاً جوفاء عن معان تافهة ؛ ولا اصواتاً مختلفة عن افكار غير مؤتلفة .

قد لايطيب لك ان تحمل ديوان ابي تمام في نُزَهك ، او ان تقرأ منه في سمَرك ؛ ولكن اذا اعتزلت ضوضاء العالم ، وترفعت عن سفاسف السوقة ، ومعاقر الجهال ثم اردت ديوان شعر تُسرّح طرفك في ابياته وفكرك في ارجائه فليس لك الا بضعة دواوين ، احدها — وقد يكون اعظمها شأناً في ذلك — ديوان ابي تمام .

قد يأنف بعض الناس من مجالسة السوقة والشُطار والعيارين كي يميز

---

(١) الديوان ٤٨٢ — ٤٨٤

نفسه منهم امام الناس ولكنه يشركهم في كل ما يميلون اليه من لهو وحديث وقصص . فهو من اجل ذلك على الحقيقة منهم ، تربطه بهم آصرة الذوق ، وتلفه بنبعتهم علاقة النشأة الاولى . ومن الناس من لايستسيغ شعر ابي تمام واضرابه احتجاجاً بصعوبته وتعقيده ؛ ولو نسب ذلك الى تنافر الفطرة ومعاصاة الفكرة لكان قوله اقرب الى الصواب ، واجدر بالاعتبار . فلا تحمل اذاً على ابي تمام من اجل بعد معانيه وغريب كلامه فقد يكون ذلك فخراً له ، وهو كذلك ؛ وقد يكون قصر باع فيك ، ولعله ذلك .

الاغلاط المطبعية

الصفحة ١٨ : السطر ١٤ — همدان صوابها = همذان

ص ٣٢ : س ١٦ — درهما = درهم . ص ٣٠ : ٢ اسرة = اسرته

٣٢ : س ١٧ — علية = عليه — ٣٤ : ١ بطرستان = بطبرستان

ص ٥١ : ٥ — ٣ = ٣ ب

ص ٥٥ : ١٨ — lies: Geschichte ... Seite

ص ٦٠ : ٦ — المعتصبون (مرتين) = المعتصبون

٦٦ : ١٦ — ١٧ محمد بن عبد الملك الزيات — ٩٦ : ٦ = ١٠٨ الحكمة

مطبعة الكشاف بيروت